رواية

حينما نسيتُ أن أموتْ

ما لم أقُلهُ لكِ

صابر موسى عليان

رواية

حينما نسيتُ أن أموت

ما لم أقُلهُ لكِ

صابر موسى عليان

813.9538 عليان، صابر موسى

حينما نسيت أن أموت / صابر موسى عليان .- ط ١ .- الكويت :

شركة مكتبتكم للنشر والتوزيع ، ٢٠١٥

ص. ؛ ٢٤ سم.

٥- القصص العربية القصيرة – الكويت

أ – العنوان

ردمك : ٣-٠١-٨٧-٩٩٩٦٦-٩٧٨

رقم الإيداع : ٥٠٧ / ٢٠١٥

حينما نسيتُ أن أموت

صابر موسى عليـــــان

إلى

الوطن الذي لا يمكن له أبداً أن يصبح منفى

" أبي وأمي "

وإلى " أسامة " الذي تكبرهُ هذه الرواية ،،

بحربينِ ونصف حصار

ولأمهِ ،، التي كلما قلتُ لها " أحبُكِ "

شعرتُ كيف يكون الحرفُ عاجزاً أمام ما نشعرُ به.. !

وللوطن الذي بُرغمِ كلِ محاولاتِ نفيهِ ،،

يبقى وطنْ ..!

قبل البداية

لا تُعلقْ قلبَك بكاتبْ / فهو سيجعُلكَ معلقاً بين غيابهِ الحاضرِ بحرفه، وبين حضور حرفهِ الغائبِ به،

لا أنتَ تلقاهُ ولا ترحلُ عنه، لا أنتَ تشكوهُ، ولا تشكو لهُ، يأتي بدونِ موعدٍ، ويرحلُ حين يفيضُ الشوقُ لهُ،

الكاتبُ يشبُه الحُلمَ الذي يأتيكَ وأنت نائمْ، لأنهُ يدرك جيداً أن أقصى ما تستطيع فعلهُ به هو أن تراهُ . لا أن تَملكُه ! . .

الكاتبُ هو أنا . .

وللأسفِ الشديدِ . . أنت

وطنْ .. !

عليكَ حينما تختارُ أن تعشقَ وطناً .. أن تكونَ على قدرِ الموتِ الذي سيطالك بتهمة العشق، على قدرِ الألم الذي سيحيا في تفاصيلِ وجهك كي يرسم لوحةً للذاكرة دون أن تعترض، عليكَ أن تجيد حياكةَ النور، فالظلام الذي سيقابلك كثيفٌ يغتال كل حكاية للحب، عليكَ أن تكون شهيداً .. يحلقُ كل صبحٍ مع النوارس يرقبُ زهر النسرين من فوق سبعِ قطراتٍ للندى، يغني له أغنية

البقاء كي ينمو، عليك أن تكون أسيراً يمنحُ الشمس حزناً يليقُ بهذا الوطن، ويكتبُ مع حمامة شباكِ النور الصغير المطل على زنزانته قصيدة أخر بيت فيها ..."انتظرني .. فأنا منكَ وأنت مني"، وعليكَ أيضاً أن تكونَ أمَاً ثوبها خارطة وعلى يديها حِناءٌ من شجرةٍ تنتمي للسماء قبل انتمائها للأرض، وتعلقُ في رقبتها صورة ذاكَ الطفل الذي رحل وانتظرته عشرين عاماً فعاد شهيداً، عليكَ أن توقع بقلبك على وثيقة انتماء لا على وثيقة حب، على وثيقة احتواء لا على وثيقة عشق، عليكَ كي تعشق وطن، أن تكون أنت وطناً..!

لم تكن وطني فقط .. كنتَ لي كل شيء، بلدتي المكتظة بالبسطاء الملقين على رصيفِ الشمس، أطفالُ حارتي الذين كنتُ أراقبهم من شرفتي المرتفعة عن كل شيء سوى الوجع، ابتسامات الصغيرات ذوات الضفائر الصباحية حين يركضن إلى المدرسة بجوار بيتي، بائع الخبز الذي تختزل تشققات يديه وذبول عينيه واختناق

صوته تاريخ فقرائنا الطويل، حين ينحدر صوته من خلف المصلين بعد صلاة الفجر ويقول لي أتيتكَ بخبزٍ ساخن، آخذه وأتلمس حرارته وأبتسم لأني سأحظى بدفعةٍ من الحب حين تصحو أمي وتشمّ رائحته بجانب رأسها.

لطالما كنتَ لي " كلّ شيء "، وما زلتَ رغم - كلَّ شيء – " كلَّ شيء "، أنتمي إليكَ بقلبي بعدما أبعدتني بالجسد، وأحنُّ إليكَ بمرضي بعدما أهداني انتمائي إليك المرض، وأشتاقُ إليك .. أشتاقُ إليكَ يا وطناً جرّدني من كلِ شيء سواه ..

أخبرني .. !

أتحبني إلى هذا القدرِ من الحب؟!

أتغارُ عليّ إلى حدِّ النفي والبُعدِ والارتماء على ضِفّة الحنين إليك!؟

يا وطني ..

يا حبيباً أحبُ حبي له وأكره حبه لي،

أنا لي قلبٌ واحدٌ وأنت وطن،

أنا لي أمٌ واحدةٌ

وأنت أنجبتكَ أرضٌ ينبتُ في زيتونها كل شمسٍ مئات الأمهات،

أنا لي نبضةٌ واحدةُ فقط هي أنت

وأنتَ إن قالتَ السماءُ مطراً

أهدتكَ مع كلِ قطرةٍ الألاف النبضات .. !

أنا لي روايتي المشنوقةُ على يديك

وأنتَ لأجلكَ تولدُ وتنتحرُ حبراً فيها الكلمات .. !

ذاكَ الذي لا أنتمي إليه وأحبُ شعره حين قال " على هذه الأرضُ ما يستحق الحياة " كان يقصدكَ أنت، نعم يا وطني كان يقصدكَ أنت،

حين أرى ورقاتي الخمس والعشرين تتساقط أمامي في خريفٍ أبيضَ كهذا

معناه أنه يقصدك أنت،

وحينما يقتاتُ مني الوجعَ كل يومٍ كي أبقى ملاذاً له ومنه دونَ أن يمنحني تذكرة رجوعٍ لك

معناه أنه يقصدك أنت،

وحينما تنامٌ أمي على صوتي كوسادةٍ وأنام أنا على دمعها كقبرٍ

معناه أنه يقصدكَ أنت ..

حينما تجردني من ذاك الذي يسمونه فيك – حب –

معناه أنه يقصدكَ أنت ..

حينما أفيقُ من الحياةِ الصغيرة إلى الموتِ الكبيرِ فلا أجدُ من والدي إلا صوتاً وصورةً وبندقية هي الوصية

معناه أنه يقصدك أنت ..

أخبرني ~

أخبرني أي الأشياء الراحلة تليقُ بك لترحل أنتَ أيضاً وتتركني ..

أخبرني بالله عليك .. !

أتدركُ يا عزيزي ماذا تعني هذه التشققاتُ الكبيرةُ بحجم حبي لك في روحي، أترى تلك الممرات المتشعبة إلى أزقةٍ أصغر في وجهي، أيعني لكَ شيئاً أن أبيتَ على شفا نبرةٍ من صوتٍ يأتيني كل ليلةٍ من خلفٍ مسافات الألم، إن كنتَ لا تدركُ ولا ترى ولا تعي فأعطني اسما أخر

لك غير " وطن " لأناديك به علّه يدركني .. عله يمنحني لو استفاقة حلمٍ غيّبته عني بإرادة حبي ورغماً عن، أعطني عنواناً آخر لك غير تلك الحارات المعلقٌ على جباهِ صغارها صورة وجعي، أعطني أي شيء، حباً كاذباً، أملاً يائساً، ربيعاً خريفيّ الملامحِ، ابتسامات بدون ابتسامة، حياةً لا تكون خلاصتها الموت كل ليلةٍ بدمعة، أي شيء .. أي شيء يا وطني .. أي شيء وإلا .. فاتركني ..!

نعم اتركني .. يقتلني هذا العشقُ الذي يجيئني كسكرة رحيل .. ما الذي فعلته بي كي أعشقكَ إلى هذا الحد .. أعشقكَ إلى حدِ الوجع يا عزيزي، إلى حدّ أنني بتُ لا أتمنى لهذا القلبِ ان ينبض طبيعياً إلا كي يليقَ بك، أعشقكَ فلماذا تعذبني .. لماذا عليَّ أن أكون أنا فيك الفقراء والبسطاء والمرضى والمتسولين والمنبوذين والدافعين ضريبة الموت بدون إذنٍ وأطفال العالم العاشر

المولودين على الأرصفة الجافة، لماذا تطالبني بعشقٍ كاملٍ وأنا أحيا بجزء قلب .. لماذا يا عزيزي لماذا .. !!

تلك الذكريات التي تُصر أن أزيلها من أدراج ذاكرتي لأنك تغارُ منها، عليّ أن أخبئها في مكان آمن منك .. عليّ أن لا أسمح لك بالعبث فيها، لكَ حبي ولي هذا الوجع فأتركها، أخبرتك أكثر من نبضةٍ أنك لن تستطيع أن تنزعَ انتمائي لها، حتى لو صيّرتني منفى، لكنك تُصر على أن علاقة الحب بيننا لابد أن تكون إلى حد أن أتخلى عن كلِ شيء لأجلك ..
أتعلم ~ أحبكَ نعم لكني أعترف اليوم بكل ما أوتيتُ من حب أنني أكره حبي لك .. !
في كلِ حزنٍ كنتُ أهرب منك فلماذا كنتَ تُلقي بك أمامي لأتعثر بك، لماذا عليّ أن اعترف بحبي لك عدة مراتٍ وأنت تُصر أن تكون ذاكَ العاشق الذي لا يُذاع له سر، أي كبرياء هذا الذي فيك، لماذا لا تنحني للحبِ حينما يأتيك، لماذا لا تكون وطناً وحبيباً في ذات القلب

لماذا تُصر أن ترتدي عباءة رجلٍ شرقيٍ يرى في الحبِ ضعفاً ونقصاً ولا يدري أن النقص في أن لا يحب، أينقص ذلك من عنفوانكَ حينما تقول لي أحبك .. كم مرة عليّ أن أُعري صدري لسهامكَ كي أنتزعَ منك هذا الاعتراف الواجب عليك قوله !

تعلمُ أن بدايتي كانت فيك، ونهايتي كانت إليك، ومسافتي منك إليك كانت أنت، فدعني لذاك الشوق لهم والذي أراه في عينيك .. لا تكن أنانياً إلى هذا الحد، لن يأخذني منك شيء، أولئك الذين تخشى عليّ منهم فقدتهمُ حينما انتميت إليك .. فكن طيباً واترك هذا الجزء من القلب يسافرُ علّ النبضات تعيده كاملاً لتصبح علاقتنا بين قلبين لا بين قلب وجزء قلب .. كن " وطن ".. فأنا لا أريدُ حباً .. أريدُ وطناً .. أريدكَ أنت فأطلقني، أعطني حريتي كي أعودَ بقلبٍ كاملٍ إليك !

❖ ❖ ❖

" قليلون أولئك الذين يختارون التضحية بأغلى ما يملكون من أجل منحنا ضوءاً يكفينا لمواصلة الحياة المظلمة، ولستُ أظن أن رحيل والدي عن هذه الحياة قبل مجيئي إليها كان لغير ذلك، فعلى قدر الألم الذي يلفُني مع كل حضن أبٍ لابنه أو ابتسامة ابن لأبيه إلا أنني أجد نفسي أفضل من كل هؤلاء، فلستُ أعتقد أن هناك من يتقنُ منحنا الحياة كالشهيد . ! "

ما لم أقلهُ لك ،،

الليلةُ الأولى ..!

وحده هذا البياضُ الذي لا يشبهني باتساعه في عيني يستطيعُ أن يمنحني القدرةَ على الكتابة لكِ الآن، هذا العالم الذي يحاولُ كلٌّ من فيه أن يرشي الحياة بالحبِ قليلاً كي تمنحه أنفاساً أخرى ليواصل كتابة قصيدته الأخيرة يهديها لمن سيُقيمون في أعينهم له مراسمَ تشييعٍ بالدموع .. أخشى عليكِ من الدمع لذلك رحلت ..

رحلتُ وأبقيتُ فيك نرجسةً تنمو على أعتاب قلبكِ الأبيضِ من هذا البياض .. رحلتُ وتركتُ قلبي بين عينيكِ يرقبُ كل صبحٍ استفاقتهما ليحظى بالنورِ منهما ويأتي به إليّ في عتمتي هذه .. رحلتُ لأجلِ حبٍ سيُنهيني ولن ينتهي .. لأجلِ عشقٍ سيأخذُ مني كلَ شيءٍ ولن يرتوي .. رحلتُ عن وطنٍ أنا منه وهو إليّ لا ينتمي ..

أجملُ شيءٍ في هذا المكان يا أمي أن شيئاً واحداً يجمع من ينتمون إليه . . هو الوجع .. الوجعُ الذي لا شفاءَ منه، الوجعُ الذي أهدتنا إياه الحياة كريمةً، وتطالبنا مقابل ذلك بالصمت، الصمتُ الذي سيرافقنا حين رحيلنا ويبقى هو الشيء الوحيدُ الذي امتلكناه بعدما جردتنا من كل شيء.

رأيتكِ بالأمس حينما كنتُ جالساً في حديقة المستشفى كعاشقٍ ينتظرُ غائباً لن يأتي، ويعدُ أوراق الخريف

المتساقطةِ من قلبه علَ آخر ورقةٍ تحملُ له ربيعاً، أي ربيعٍ حتى لو كان محترقا، أتراكِ احترقتِ أم أن الامهات لا يكبرنَ وتلك التجعداتِ في ملامحهن مجردُ حكاياتٍ يكتبها الزمن.

قبل أن تحملي بي كنتِ تنتظرينني، وبعدما حملتِ بي قضيتِ سبعة أشهرٍ أخرى أيضاً تنتظرينني، وبعدما أنجبتني علّقتِ على باب غرفتي " غرفة المهندس " وقضيتِ عشرين حنيناً وأنتِ أيضاً تنتظرينني، وحينما بدأت تتفتّحُ في عينيكِ الزنابقُ رحلتُ عنكِ بدونِ علمكِ، والآن لعودة غائبٍ لا تعلمينَ إلى أي وطنٍ قد رحل أيضاً تنتظرين.

يا سيدةَ الأرضِ والقلبِ والغيابِ والانتظار .. من وطنِ الوجع الذي رحلتُ إليه، أحبكِ وليتكَ عن حالي تعلمين .

رأيتكِ في تلكِ القبلة التي رسمتها أم صديقي علاء على وجهه، دائماً يراودني ذاك الشعورُ بالفقد كلما رأيتُ أم

صديقٍ للوجعِ تحطُ على جبينه كقبلةٍ ينتظرها منذ زمن، ها أنا أجلسُ بالمقعد وحيداً يا أمي، وحولي كل حكاياتِ اللقاءِ وأنا أكتبُ منذ خمسةٍ وعشرين فقداً حكاية الفقد، خمسةٌ وعشرونَ شتاءً يسكنني وأنا لا زلتُ أحترق، أتعلمين أين المفارقة بيني وبينهم هنا، في كل حكاياتِ الفقدِ هناكَ غائبٌ وهناكَ من ينتظر، إلا هنا في هذا القلبِ المثقبِ بالألم، أنا أنتظركِ لتأتي، وأنتِ تنتظرينني لأعود، وأنا أحترق، تحترق كل أوراقي التي أكتب عليها رسالتي هذه كما يكتب جهاز تخطيط القلبِ نبضات قلبي المترددة مثلي عن الحياة.

علاء هذا يشبهني ككل الذين هنا، فملامح الجالسين في محطة الانتظار لرحيلٍ أزلي متشابهة، الابتسامة واحدة لأننا حينما نبتسم هنا نبتسم بصدقٍ، فنحنُ لا نعلم هل سنبتسم بعدها أم لا!؟ والابتسامة الأخيرة دائماً تكون مغلفة بالحب، حتى التفاتة القلبِ نحو الشمسِ يرجو منها صبحاً آخر أيضاً واحدة.

حينما جئتُ إلى هنا هارباً منكِ ومن الوطن، كان أول من تحدث معي، قام من مقعده، وقطفَ وردةً بيضاءَ كانتَ تجلسُ بجانب المقعد ، وجاء يبتسم، جلس بجانبي وقدم لي الوردة، أذكر أنني لم أبتسم له، فالوردة التي التقطها ليأتيني بها كان أول يومٍ لها حينما دخلتُ هنا ، وهي الشيء الوحيد الذي أحييه صباحاً وأنا الوحيد الذي تنحني قليلاً لأجله كي تمنحه قطرة ندى ليبلل بها وجعه !

أخذتُ منه الوردة ونظرتُ إليها بصمت، فالشيءُ الوحيد الذي أمارس معه اللقاء هنا يودعني، كانت جميلة جداً كعينيكِ حينما كنتِ تبكين ، قطع وداعي لها وقال:

- لعينيكَ نصيبٌ من الشمس، فلماذا تغلق شرفتيهما عنها ، لماذا لا تبتسم؟
- الوردةُ لم تُخلق لتُهدَى، بل لتمنحنا ربيعاً حينما تمتلئ قلوبنا بخريفٍ متعب، والشمسُ لا تشرق كي تُقبل عينيَّ، بل لتمنح الدفء لهما ، لأنها تعلم

أن هناكَ عاشقاً يعقدُ معها لقاءً كل موتٍ لتمنحه قسطاً آخر من الحياة.

- رقيقٌ أنتَ كالوردة . .
- وقاسٍ أنت عليها كقسوة الوطن . . !
- من أين ؟
- من ذاكَ الوطن الذي يختزله الشهداءُ بقبلة، والفقراءُ بنبضة، وأمي بنظرة، أنا من " فلسطين"، وأنت ؟
- من هناك، من تلك الجميلة التي أينما كنتَ وحلقتَ نحو السماء رأيتها، من وطنِ الأوجاعِ يا رفيق الوجع ، أنا من " مصر " .
- منذ متى وأنت هنا؟
- لا أعلم، ربما قبلك بقليل، الايام يا صاحبي لم يعد لها قيمة هنا، ولم نعد نشعر بها فنحن لا ننتظر أحد ولا أحد ينتظرنا.
- لماذا ، أليس لك أصدقاء ؟
- الذين يموتون هنا فقط يصبحون أصدقائي.

- إذن قريباً جداً سنصبحُ أصدقاء، سأغادر الآن وإياكَ أن تعاقب الحياة مرة أخرى بسلبها من الأشياء هنا، إياكَ – يا صديقَ الموت – والورد الأبيضْ فهو الذي سيكون حين رحيلي كفني إليك !

كان جميلاً عند اللقاء وكنتُ قاسياً جداً، اللقاءات التي لا ننتظرها ولا نكون مهيئين لاستقبالها تكون لحظاتها قاسية حينما لا نجدُ ما نقدمه هدية للأخرين على حضورهم، لأجل ذلك كنتُ كلما اقتربتُ من باب المنزل وأنا عائدُ من بيعِ الحلوى أغني، كي تعلمين بقدومي وتهيئي صدركِ لغفوةِ رأسٍ متعبة من الأرصفة المارة على قلبي بصخب، كنتِ كريمةً جداً عند اللقاء، وأنا طمّاعٌ جداً لأن أمكث أكثر على شرفة قلبكِ، أستمدُ منه النبضات، وكأنني كنتُ أعلم أنه سيأتي يوم أحتاجُ فيه لنبضٍ أخرٍ ليكملَ نبضي.

مليئةٌ حد الوجع أدراجُ ذاكرتي بكِ وبكلِ لحظة من العمر القصير الذي أدمنته وأنا أرتشفُكِ حباً كلَ مساء، مليءٌ هذا القلب بعشقٍ مشتت، ما بينكِ وبين الوطن وبين -المريمة -التي صيَرتُ لها صدري ربيعاً حينما عاد الخريفُ، مليءٌ أنا بكِ يا أمي والحكايات الجميلةُ هنا تقتلها النهاياتُ الحزينة، وأنا أشتاقكِ، أشتاقُ فيكِ كل شيء حتى أنا، ليتني أراني لو لحظةً في عينيكِ، ليتَ هذا القلب يأخذُ منكِ لو نبضةً واحدةً فقط قبل أن يتوقف عن النبض، ليتَ المساءُ الأخير لا يأتي قبل أن تأتي.

أتراكِ تعلمينَ الآن ما أنا فيهِ، ما الذي أصابني، أما زلتِ تعتقدينَ أنني هنا لأكمل دراستي، كان النسرينُ سيذبل في قلبكِ لو أخبرتكِ حينها أنني مصابٌ بمرضِ القلب، وأنني على قدرِ الحبِ الكبير الذي يسكنني إلا أنني أحيا بجزءِ نبض، لو أخبرتكِ يا أمي أن الطبيب قال أنه لم يتبقى الكثير من الوقتِ وأغادر، وعليَ السفرُ إلى هنا كي أجري عمليةً تكونُ نهايتها إما حياةً جديدة أو

موتاً أخير، لو أخبرتكِ لأجبرتِ نفسكِ على الموتِ من أجل أن تمنحيني الحياة ، فأعذريني، وها أنا أكتبُ لكِ، من وجعي البعيدِ هذا الذي يأسرني ويمنعني عنكِ.

مؤلمُ جداً أن تكتبَ شيئاً لغائبٍ وأنتَ تعلمُ أنه لن يقرأه إلا بعد رحيلكَ عن الحياة، ليتَ هذه الكتابةُ تعطينا على قدرِ ما تأخذ منا، ليتها تمنحنا لقاءً واحداً فقط مع الذي نكتبُ لأجله مقابل كل عمرٍ نعيشه، لطالما سألتُ نفسي، لماذا نصرُ على الكتابةِ ونحنُ نعلمُ أنها لن تمنحنا لقاءً مع الوطن؟

لماذا علينا أن نموتَ مع كل حرفٍ كي نحيا بعدَ كلِ صفحةٍ مسافة شهيقٍ واحدٍ لنكملَ كتابة الصفحة الثانية ؟

لماذا علينا أن نكتب ونحن نعلم أننا نوقعُ أسفل كلِّ صفحةٍ على وثيقةِ وجعٍ جديدة ظناً منا أن الوجع يمنحنا قوةً لمواصلة الحياة ؟

الأشياءُ التي تقترنُ بكِ تصبحُ جميلةً جداً، لذلك وضعتُ الوردة بجانب صورتكِ عند رأسي في كوب ماءٍ صغيرٍ وأسميتها " أنتِ "، أتراني سأشهد رحيلها عني أم أنها ستشهد رحيلي عنها كما رحلتُ عنكِ، أحقاً تشبهين الورد أم أن الورد هو الذي يشبهكِ؟

حينما رحلتُ إلى هذه البلاد الغريبة بكل ما فيها تركتُ خلفي كلَ شيءٍ إلا الذكريات وأنتِ، لا أدري أأنا من أحضرها أم أنها هي من تلاحقني، هل أنا من يملكها أم هي التي تعلقني معها في أدراج ذاكرتي، على الرُغم من كلِ الوجعِ الذي يلفها ويلفني إلا أنني أحبها، أحبُ أن أغفو كل ليلةٍ على كتفها أهدهدُ من وجعها تارةً وتارةً تهدهدُ من وجعي.

أتدركين يا أمي ماذا يعني أن أقضي الليالي الأخيرة من عمري برفقة ذكرياتٍ ووردة بيضاء وقليلٌ من النبض وأمنية، أمنية أن أعود قليلاً إليكِ الآن، أضعُ رأسي على قلبكِ وأغفو طويلاً، لم أعد قادراً على حمل هذا الرأس أكثر من ذلك، تثقلهُ الأشياء الغريبة حولي والتي

تجتاحه رغماً عني، أحتاجُ إليكِ عمراً أخر، أحتاجُ إليكَ نبضاً أكثر، أشتاقكِ أكثرُ من شوقيِ إليكِ بحجم شوقكِ إليّ.

لا أدري لكني كُنتُ أشعرُ قبل أن أكتشفَ هذا المرض أن هناك أمراً ليس عادياً سيحدث، لذلك كُنتُ حريصاً على أن لا تضيع أي نبضةٍ هباءً، حتى تلك التي كُنتُ أغفو بها، كُنتُ أصرُ على أن يكون صدركِ وسادتي كي أمتلئ منكِ وبكِ.

اكتشافي للمرض كان بعدما أخبرتُك أني شعرتُ بألمٍ غريبِ لأول مرةٍ على غير العادة وأنا في الجامعة، وأنتِ تعلمين أنه من عادتي أني لا أحبُ زيارة الأطباء، كنتُ في بيت صديقي رامي أدرس معه لامتحانات أخر فصل من الجامعة، وكما تعلمين فوالده طبيب، تعبتُ ليلتها جداً، أصبتُ بدوارٍ وضيق تنفسٍ فكشف علي وحينها أخبرني أن هناك نقصُ في كمية الدم وطلب مني أن أزوره غداً في عيادته الخاصة لإجراء بعض الفحوصات، وفعلت . . وبعد أسبوع اتصل بي رامي أن والده يريدني

فوراً، وحين ذهبتُ أخبرني بأني مصابٌ بمرض القلب، وأن المرض قد تعدى مرحلته الأولية وبات مزمناً، وأن علي المباشرة فوراً بالعلاج وإلا . . . وإلا فإن النهاية قريبة جداً . . !

كان يتحدثُ إلي وكنتُ أراكِ أمامي، عيناكِ اللواتي سيذبلن حين تعرفين، وكيف أن القلب الذي في صدركِ سيتوقف، وأن الليل الذي تتحدينهُ كل مساءٍ أنه سيزول قريباً على يديّ سينتصر، وأن الوردَ على شرفتي سيذبل، وأن الحساسين لن تغني مرة أخرى لي ، وأني سأرحل . . !

حين تقرئين رسائلي هذه أول شيء عليكِ أن تفعليه هو أن تسامحيني، قوليها أرجوكِ الآن كي أستطيع أن أكمل لكِ ما خبئتهُ عنكِ، احتفظت بهذا السر عاماً كاملاً، خبئتهُ بكل ما أوتيتُ من وجعٍ عنكِ لدرجةِ أن كافة أدويتي كانت عند رامي، لذلك كنت أقضي طوال وقتي في بيته فلم تكن تمضي ساعةٌ إلا وعلي بأخذ جرعة الدواء اللعين.. !

والد رامي طيبُ جداً، كان يأخذ دور الأب حين يعالجني، كان صادقاً كأب وكاذباً كطبيب، كنتُ أعلمُ جيداً أن كل هذه الجرعات من الأدوية ما هي إلا طريقةٌ لتأجيل نهايةٍ آتية، ونهايات الحكايات التي تشبهُ حكاياتنا يا أمي تكونُ قريبةً جداً من البدايات، وأنا حينها لم أكن قد بدأت بعد، كان قد تبقى أياماً قليلة على تخرجي من كلية الهندسة، لأبدأ الحياة التي عشتُ أكثر من عشرين عاماً ميتاً كي أصل إليها، كي أخذ بيديكِ إلى دُنيا أخرى، دنيا ليس فيها من الوجع ما تعرفينه، ولا من الدمعِ ما تذرفينه، ولا من الغيابِ الذي غبناهُ طويلاً، دنيا فيها أنا قرة عينكِ، وأنتِ جنتي . !

اللحظاتُ التي كنتُ أنتظر أن تنتهي بفارغ الصبر بتُّ أتمنى أن تتوقف وأتوقف معها، مؤلمُ جداً أن تكون نهايةُ الموتِ موتاً أخر، مؤلمٌ أن لا آتي مساءً بوردةٍ لعينيكِ أهديكِ إياها بعد يومٍ شاقٍ على عتبةِ الحياة، لم أكن أملكُ لكِ سوى النبض، والآن بات له موعدُ للتوقف، فبماذا آتيكِ . . ؟

لأجل ذلك كله أخفيتُ عنكِ هذا السر، احتفظت به وجعاً في قلبي، على أمل أن تبتعد النهاية قليلاً إلى حين أن أرى في عينيكِ فرحاً، أو أني إن رحلت، فأقلُ ما أقدمهُ لكِ حزناً يبدأ منذ لحظة رحيلي، لا قبل ذلك بكثير..!

هل تذكرين حين سألتُكِ كيف علي أن أحب الوطن ولستُ أعلمُ عنه شيء؟ أخبرتني يومها أنه يحدثُ أن نُحبَ أشياءً لا نعرفُها، تقودُنا إليها أشياءٌ أخرى، كالوطن، ننتمي إليه قبل أن نشعرَ به أو نلمسه أو حتى نراه، ذلكَ لأن هُناك أشياءً تدلُنا عليه، ذاك الحُضنُ الإلهي الذي نرتمي فيه حين خوفنا وضحكنا وهربنا ونومنا، شيءُ يدلنا على الوطنْ، وتلك اليد التي تمتدُ من وسط الزحمة والضجيجِ الذي يعصفُ بقلوبنا تربتُ عليها، تدلنا على الوطنْ، أشياء لسنا ندركها لكننا نشعُرها، لسنا نراها لكننا نحسُها، واليوم اكتشفت أن هذه الأشياءُ كلها بأشخاصها وأفراحها وأحزانها وذكرياتها تقودني

إليكِ . . لأكتشفَ أخيراً أنني مُنذُ أن ولدتُ .. وأنتِ الوطنْ . . !

نعم أنتِ الوطنْ وليس دونكِ كذلك، فلو كانَ هذا الذي نفاني عنكِ وطناً، لما كانَ فيهِ حُدوداً للشوقْ بين الغائبينْ، الوطنُ هو الشيءُ الوحيدُ الذي ليسَ لهُ تعريفاً لغوياً، ولا حتى اصطلاحيا، الشيءُ الوحيدُ القادرُ على تعريفهِ هو " أنت " ، بماذا تشعر فيه ؟

وعَني أشعُرُ أنه أكبرُ من أن يُلخص بجغرافيا، أكبرُ من كلماتِنا التي نقولُها في لحظةِ حياةْ، متناسينَ أن هُناكَ ضريبةُ موتْ، هو أن لا يكونَ فيه تعريفاً للحُب، فالأشياءُ التي تُعرّفُ تُقيد، تُختصر، تموتُ فيها التفاصيلُ الصغيرةُ الجميلةُ، والوطنُ لا يعترفُ بالنهايات المغلقةْ، هو يُعطيكَ الحقُ في صياغةِ نهايتكَ تماماً كما يُعطيكَ الحقُ في صياغةِ البدايةْ، الوطنُ يا وطني هو أن لا تكون النهايات السعيدةُ فيكَ هي نهاية تلك الحكاياتِ التي لم تنتهي بعدْ.

حين أطلُ من الشباكِ هُنا أرى أشياءً أعرفها جيداً على الرُغم من اختلاف المكان والزمان، أكثر ما كان يشدني هو أرصفة الشوارع، فهناك قاسم مشتركُ بيني وبينها، لا فرق بينها وبين الفقراء، الفقراء يوحدهم الجوعُ أينما كانوا في هذا العالم وهي توحدها رعشة البرد حين يأتي المساءُ وتقسو عليها أقدام المارة العابثين غير الآبهين بحجارةٍ من الممكن أن تكون أكثر شعوراً من بعض البشر، مثلي يتقنُ لغة الأرصفة جداً، فلطالما كانت أوسدتي حين كنتُ أخذُ قسطاً من الراحة بعد يومٍ شاقٍ عند إشارات المرور حينُ كنتُ أبيع الحلوى، أذكرُ أني كنت أقضي وقتاً وأنا أشكو إليها من قسوة البشر، أولئك الذين يمرون علينا وكأنهم قد مروا على كائناتٍ لا يعرفونها، مع أنني كنت الذي يبادرُ إليهم ويدقُ على شباك سياراتهم، والكريم منهم كان الذي يفتح شباكه ليقول لي شكراً لا أريد، والأكرم من ذلك هو ذاك الذي كان يشتري عطفاً لا حاجةً، لكن صنفان منهم كانا بدلاً من أن يشتريا مني يبيعاني

قسوة، أحدهم ذاك الذي كان يصرخ في وجهي بأن أبتعد عن سيارته، والأخر هو ذاك الذي كان يعطيني ثمن الحلوى ويرفض أن يأخذها، ظناً منه أنني متسولاً للمال، مع أنه لو نظر في عيني قليلاً لعرف أنني كنتُ متسولاً للحب، كان يكفيه أن ينظر إلي بنظرة تُشبع رغبتي للحياة، كان يكفيه أن يربت على كتفي ويقول لي أعانك اللّٰه، كان يكفيه أن يسألني عن دراستي لأخبره بأنني الأول على المدرسة كلها على الرغم من أنني أقضي نصف يومي هنا في حين أن أبنائهم يقضون كل يومهم في رعاية ودراسة ولا يستطيعوا تحصيل ما أحصله من درجات، كنتُ أتمنى أن يسألني أحدهم ذلك في الدقيقة التي ينتظرون بها إشارة المرور متذمرين منها ومني ولم يفكر أحدهم لحظة كيف أقضي جُل وقتي هنا؟

لطالما كنتُ أقفُ بعيداً عن السيارات وأشاهدُها وهي تخترق قلوب أصدقائي الصغار وهم ينتقلون بينها

كالذي ينتقل من موتٍ إلى موت، وكيف كان أحدهم يحيل تجارة الألم هذه إلى لعبة سيرك حين يقفز من فوق السيارات بطريقة بهلوانية ليضحكنا، كنتُ أراه وكأنه يخطف حقنا في الابتسامة من وجوه الآخرين حين كانوا يغضبون لأنه فعل ذلك فوق سياراتهم، لكنه كان يستمر دون أي اعتبار لغضبهم وربما أحياناً لصراخهم، تعلمتُ حينها كيف أصنع لنفسي عدالةً في غياب العدالة، تعلمتُ كيف أكون نداً، وأن أمارس حقي في سرقة الأشياء التي سُرقت منا تحت شعارات زائفة وعناوين كاذبة ومؤسسات تقام وتبنى وتكبر ويكبر من فيها على ظهرنا وباسمنا وتحت ظل معاناتنا.

الأشياء التي كنتُ أشعر بها مع هؤلاء الصغار مثلي سناً والكبار حُباً لم أكن أشعرها في مكانٍ أخر، كل شخص قادر على أن يخلق عالماً خاصاً به، وعلى الرغم من أن مكونات كل هذه العوالم واحدة كالفرح والحزن والابتسامة والمرح والحب، إلا أن الوسائل لهذه

المكونات تختلف من عالمٍ إلى أخر، وفي عالمنا كان كل شيٍ مختلفاً، أولئك المارين الذين كانوا يرمقوننا بنظرات العطف والأسف لحالنا ونحن نأكل على الرصيف أو نجلس لنتحدث ونضحك، لم يكونوا يعلموا أننا نملك حياةً في قلوبنا ربما تكون أكبر من الحياة التي يملكونها هم في ظل زحمة الأشياء والأطماعِ والمتاعب والمصالح التي يحيونها.

❖❖

الشتاءُ هنا أيضاً لا يختلفُ كثيراً عن الشتاء هناك، فالسماء واحدة، والمطرُ قبل أن يطأ بحبه الأرض يكون متشابهاً، الاختلاف فقط يحدث حين يلامس قلوب البشر، فبعضه يصبحُ جميلاً، والبعض يصبح ملوثاً، كذلك الحُب، أتذكرين حين كنتُ أقف تحت المطر فتناديني غاضبةً خوفاً علي من البرد، لطالما فعلتُ ذلك من ورائكِ، المطرُ يعطيني شعوراً بالأمان، أشعرُ يا أمي وأنا أقف تحتهُ وأغمض عينيّ أن الله يحيط بي من كل اتجاه.

ذات مرة وقبل العيد بأيام كان الشتاءُ قاسياً جداً على أجسادنا الصغيرة، جلستُ أمام بسطةِ ألعابٍ صغيرة يحبها الأطفال كثيراً وغير مكلفة كتلك التي تبيعها المحلات الكبيرة، فكانت فرصة كبيرة لأن أبيع أكبر قدرٍ منها كي أحمل ما يلزم للعيد، وكنتُ أودُ أن أشتري لكِ شالاً رأيته معروضاً في أحد المحلات الكبيرة، وكنتُ أمسك بديوان محمود درويش – أوراق

الزيتون – الذي أهداني إياه عمي أبو أيمن صاحب بسطة الكتب والأشياء القديمة، مر علي رجلُ يرتدي بدلةً زرقاء ومعه طفلة جميلة ترتدي فستاناً وتبدو كأنها قطعة حلوى من جمالها، أشارت على بعض الألعاب فطلب مني أن أحضرها لها، وحين اقتربت منه سألني عن الكتاب الذي في يدي فأخبرته أنه لدرويش، سألني عن سعره فأخبرته أنه ليس للبيع وأنه كتابي أقرأُ به، رمقني يومها بنظرات لم أعلم معناها، أهي تعجبُ أم إعجاب أم تنكر لطفلٍ مثلي أن يقرأ كتباً على قارعة الطريق، قال لي يومها:

- طفلُ شارع مثلك لم يتجاوز الرابعة عشر، ويقرأ درويش . . ما الذي جاء بدرويش إلى هنا؟
- ما هو الغريبُ في الأمر يا سيدي . . أنا أم درويش ؟
- كلاكما، ما الذي يجمعُ الشارع بالشعر، ما الذي يجمعُ الوطن ببسطة الرصيف؟
- العذرُ منك يا سيدي لكن . . ماذا تعرفُ أنتَ عن الشعر ؟

- أعرفهُ منذ كنتُ في الجامعة، لطالما حصدت جوائزه، حيث ذهبتُ يقولون: أقبل الشاعر.

عدتُ لمكاني وقلتُ له وأنا مشغول بإعادة ترتيب الألعاب والبسطة:

- هناك فرقٌ بين من يدرس الشعر في الجامعة ليصبح شاعراً، وبين من ينام على قارعة الطريق فتهديه السماءُ شعراً ليحكي به عن الوطن، الشعرُ يا سيدي لا يكون شعراً إلا إذا دق باب الفقراء والبسطاء وغنى معهم وكان لهم قمراً، والشاعرُ لن يكون شاعراً إلا إذا كان شهيداً مؤجلاً أو أسيراً منح الوطن عمراً كاملاً من أجل أن يكتب له قصيدة.

خُذ طفلتك وألعابها وامضِ ودعني وهذا الكتاب والبرد أسير به إلى حياةٍ لا تعلمها، وتذكر ما قاله درويش يوماً إن أردت أن تكون شاعراً:

يا رفاقي الشعراء !

نحن في دنيا جديدة

مات ما فات، فمن يكتب قصيدة

في زمان الريح والذرة

يخلق أنبياء !

قصائدنا، بلا لون

بلا طعم . . بلا صوتِ !

إذا لم تحمل المصباح من بيتٍ إلى بيتِ !

وإن لم يفهم " البُسطا " معانيها

فأولى أن نُذريها

ونخلد نحنُ . . للصمتِ !!

كان عمي أبو أيمن يسمع حوارنا من بعيد مبتسماً، جاءني يحمل بيده كتاباً آخر وقال لي: خُذ هذا الكتاب مكافأة لك على ما فعلته، فلقد علمته درساً في الشعر لن تستطيع سنوات جامعته أن تعلمهُ إياه،

أخذتُ الكتاب، كان أيضاً لدرويش – حبيبتي تنهض من نومها – ابتسمت له وقلت: يبدو أنك تريد أن تورطني بالشعر يا عماه، ألا يكفي ما أنا فيه، ضحك حتى برزت أسنانه السوداء من أثر التدخين وقال: من يؤمنُ بالحياة كما تؤمن بها أنت، ويتمسك بها على قدر وجعها، يستحق أن يُهدى وطناً، ولستُ أرى لك دون الشعرِ وطناً، فتمسك به جيداً، وعاد إلى مكانه مرة أخرى.

أبو أيمن هذا يا أمي تعرفينه جيداً، فلطالما أخبرتك عنه حين كنتُ أعود للبيت، كان طيباً، تستطيعي أن تقرأي في ملامح وجهِ حكايات كثيرة، وكان دائم الاطمئنان علينا، حتى أن جميعنا كنا نتخذه كوالد وأظنه كان أيضاً يتخذنا كأبناء.

لم يكن لديه أبناء، فزوجته لم تنجب وتوفيت بسبب مرضٍ ألم بها وهي صغيرة ولم يتزوج بعدها، سألته مرة:

- لماذا لم تتزوج بعد زوجتك، على الأقل يكون لك أبناءٌ يعينوك على حملِ هذه الحياة ؟
- ضحك كثيراً وقال: مثلنا يا بلال يقضي نصف عمره وهو يبحث عن من يزوجه، أتريدني أن أقضي نصفه الأخر وأنا أبحث عن من يزوجني الثانية؟
- لماذا تقول ذلك يا عماه، أنت رجلُ طيب ويحبك اللّه كثيراً، والفقرُ ليس عيباً؟

تغيرت ملامح وجههِ، نظر إلي نظرة أخافتني وقال:

- الفقر كفرٌ وليس عيب، يُعاقِبُ عليه الناس هنا، بأن يجعلوك في طبقة لا ينظرون إليها، ولا يعترفون بها.

ثم صمت قليلاً وسألني:

- هل تعلم أني شاعر ؟
- شاعر؟ لم تخبرني بذلك من قبل؟

- نعم يا صغيري، منذ أن كنتُ في المدرسة، وكبرت وكبر الشعر معي، كنتُ أظنُ أنه بمجرد كونك شاعراً فأنت صاحبُ الدرجة الأولى في الوطن، تحيا به مكرماً معظماً وتسير بقصائدك بين الآخرين بفخرٍ وما عليهم سوى أن يزيدوك احتراما.
- وهل هناك غير ذلك يا عماه؟
- لا أدري، لم أتعب نفسي بالبحث، لكني منذ أن باتت قصائدي زادي، وكلماتي أغنية الصغار والكبار، كرمني هذا الوطنُ العربي بأن يباعُ شعري على هذا الرصيف.
- هل لك كتاب ؟
- نعم، ديوانٌ واحد، نشرتُ فيه عشرين قصيدة، كان اسمه " مرثية وطن "، ليس عندي أي نسخة منه، قليلُ منها أهديته لأصدقائي والباقي تغيرت ملامحه بسبب الغبار وأقدام المارة.

صمت قليلاً ثم قال، لا تفكر بالأمر كثيراً فلقد كان ذلك قبل سنوات طويلة، الأمر الآن أكيد قد تغير، لا تقلق، لا تقلق.

كان يريدُ من كلماته الأخيرة أن يبث في داخلي قليلاً من الأمل، بأنني قادرُ على جعل الكتابة والشعر حياةً لا رثاء، حُباً لا ألماً، وطناً لا منفى، حضنَ أمٍ لا حجارة رصيف، عدتُ إلى مكاني أفكر بكل كلمة قالها، وكلما أردتُ أن أحكم على الوطن بالقسوة نظرتُ للديوان في يدي فأسأل نفسي، ما دامت مأساته الشعر فلماذا إذاً أهداني شعراً؟ قضيتُ ليلتي كلها أفكرُ في هذا الرجل، وفي درويش، وفي الشعر، وفي الوطن، أيهما يستحق أن يُكرمه الوطن؟ أبو أيمن الذي يمنح الحياة كل يومٍ قصيدة جديدة تعينها على مواصلة الحياة، أم ذاك الذي يحاول شراء الشعرِ ليقول عنه الناس شاعر.. !

لطالما كنتُ أفكر في هذا الكائن الشعوري الغريب، ولطالما كنتُ أقضي جُل وقتي في مكتبة الجامعة أتنقل

من ديوان شعرٍ إلى أخر، دون أن أشعر بأي تعبٍ أو ملل، ذلك لأن الشعر فقط هو ذاك الذي لا يمكن أن أرتوي منه حد الكفاية، فكلما ظننت أني رويت ظمأي وجدتني ظمئت أكثر، حتى أن كل أصدقائي وأساتذتي سألوني أكثر من مرة ما حاجتك للهندسة وأنت قلبك معلق بالأدب، لم أكن أعلم الإجابة، لكن يبدو أن الإجابة هي من كانت تعلمني، ويبدو أن ليالي الرصيف الباردة ومرثية وطن أبو أيمن جعلاني أؤمن أن كونك شاعراً فأنت الضريبةُ ليحيا الآخرون، أنتَ الكمان الذي يعزفون عليه بقسوة كي يستمتعوا قليلاً ثم يتركوه معلقاً في زاوية ينخر جسده الغبار إلى حد التآكل والتلاشي، حتى درويش، ذاك الذي كنتُ أنام وأصحو على شعره، لطالما سألتُ نفسي: إن كان هذا الذي قضى حياته يكتب للوطن والحب والزيتون والقضية والبندقية عاش منفياً، فكيف بنا نحن وما زلنا نحاول على مدار كل سنوات عمرنا أن نخيط من ألمنا للوطن قصيدة . . !

أتعلمين أيتها القريبةُ إلى حد البُعد والبعيدة جداً إلى حد القُرب أين يكمن الوجع في كل هذا؟

الوجع أن أقضي حياتي كلها وأنا أتمنى أن أكون كاتباً، وحين يأتي لقائي مع الحرف لأول مرةٍ يكون الشيء الوحيد الذي أكتبه هو وصيتي . .!

وأنا لا أريدُ أن أكتبْ، لا أريدُ أن يعلق الساسة في وطني كلماتي كربطات العنق يتاجرون بها خلف شاشات التلفاز ويسرقون من خلفها ابتسامة البسطاء مثلي، لا أريدُ أن أكتب ما دامت الكلمات لن يكون وطنها القلب، لأنه حينها ستكون بدون روح، ومعنى أن تكون بدون روح أن عمرها سيكون أقصر من أعمارنا، في حين أنها لو وجدت قلباً يكون مدادها مداده، تصبح أعمارها أكبر من أعمارنا، لا ترحل برحيلنا بل تبقى معلقة في كل حكايةٍ وفي كل ابتسامة وفي كل لقاء.

والحل الوحيد لي كي لا أكتب هو أن أفرغ ذاكرتي من كل شيء فيها، أو أصاب بالزهايمر بدلاً من هذا

المرض اللعين الذي يعاقبني على كل نبضة من قلبي بوجعٍ لا ينتهي، الزهايمر سيمنحني فرصة للحياة بدون هذا الوجع الذي يتكاثر في ذاكرتي شيئاً فشيئا، ذلك لأن الحياة والنسيان لا يلتقيانِ أبداً . .

الذكرياتُ كائناتٌ لا تموتُ إلا بموتِنا، وعلى الرغم من ألمها إلا أنها أكثرُ وفاءً من أصحابِها، أكثرُ بقاءً من أوطانِها، أكثرُ وجعاً من رحيلٍ من تركوها وحيدة، هي أشياءُ لا تنام، لا تهدأ، لا تُنسى، تفرضُ نفسها في كل حين، ومع كلِ نبضة، تجعلُك قادراً على امتلاك - جُغرافيا - أكبر من تلك التي يمُلكُها قلبكْ . . ولذلك فنحنُ حينما نقول أننا نسينا، فإننا نقصدُ أننا نتناسى كي نستطيع الاستمرار بالنبضِ، علّ نبضةٍ واحدةٍ تصيبُ قدراً آخر لا تكونُ نهايته تناسياً آخر . . ! والأشياء الأكثر بقاءً في الذاكرة تلك التي يكون قدرها مشابهاً لقدرنا، أبو أيمن يشبهني كثيراً، في الفقرِ واليُتمِ وحُب الشعرِ والعيش منفياً في ظلِ الوطن،

والذين يوحدهم الفقرُ لا يمكن أن يفترقوا، ذلك لأن القلب يكون به مساحة كافية للحُب، على العكس من دونهم أولئك الذين تمتلئ قلوبهم بحب أشياءٍ أخرى ومصالح وسلك طرق دون الحب للوصول إلى القلب.

يشبهني في اليُتم، على الرُغم من أني يتيم الأب وهو يتيم الابن إلا أن الذي يجمعنا هو أن كلانا يتيم الوطن، وأن تكون يتيماً مزدوجاً معناه أن تحيا حرماناً شعورياً كبيراً، يجعلك تحتاج إلى أي شيء ليربت على كتفك حتى لو كان قطرة مطر.

ربما تتساءلين كثيراً وأنتِ تقرئين الآن لماذا لا أتحدث عن والدي، بدلاً من الحديث عن أبي أيمن، وربما يُخيل إليكِ في لحظةِ حُزن أني لا أذكرهُ لأني لم أعشهُ، وربما أيضاً تعتقدين أن تعلقي بهذا الرجل قد أغناني عن أن لي أباً لم أره أبداً لكنه يراني.

بعضُ الأشياء في حياتنا تتطلب منا أن نُبقيها قريباً بجانب القلب وبعيداً جداً عن متناول الحرف، ذلك لأنها غالية جداً، لا يمكن لنا وصفها أو تقدير ثمنها،

فالأشياء التي تقدر بثمن هي تلك الأشياء الرخيصة فقط، ووالدي الذي أشتاقهُ أكثر من أي شوقٍ أخر علمّني كيف أتقن هذه الحياة في غيابه أكثر مما لو كان حاضراً، قليلون أولئك الذين يختارون التضحية بأغلى ما يملكون من أجل منحنا ضوءاً يكفينا لمواصلة الحياة المظلمة، ولستُ أظن أن رحيل والدي عن هذه الحياة قبل مجيئي إليها كان لغير ذلك، فعلى قدر الألم الذي يلفُني مع كل حضن أبٍ لابنه أو ابتسامة ابن لأبيه إلا أنني أجد نفسي أفضل من كل هؤلاء، فلستُ أعتقد أن هناك من يتقنُ منحنا الحياة كالشهيد .. !

ليسَ بالضرورةِ أن يكون مفهومُ الوطنْ مساحةً كبيرة وأناساً وأماناً وكتباً وأحضاناً ومشاعرَ وأشياءَ أخرى كثيرة، بعضُ الأوطان تكونُ مساحتُها صغيرة جداً ككَف اليَدِ . . تماماً كشيءٍ اسمه قلبْ، ووالدي لم يفارقني بقلبه أبداً، وإن كنتُ أذكر الموتَ في ليالي الموت هذه ألف مرةٍ في اللحظة وأشعر به، فإنني أذكركِ وأذكره أضعافاً منها.

بعدما انتهيت من المرحلة الإعدادية (الوسطى) انتقلت للعمل في محل لبيع الخضروات والفاكهة في جنوب قطاع غزة، وعلى الرغم من بُعد المسافة إلا أنه كان أخفُ قسوةً من العمل على أرصفة الشوارع وعند إشارات المرور وتسول فتات المال القليل مقابل الكثير من تعبنا وطفولتنا ومعاناتنا، بُعد المسافة هذه ومتطلبات هذا العمل الجديد لم يترك لي أي مساحة للقيام بشيء أخر دون الدراسة، فكنت أمر على أبي أيمن ورفاق الرصيف حين ذهابي وعودتي، أطمئن عليهم وأحمل لهم شيئاً من بقايا الفاكهة والخضار المهترئة التي سيكون مصيرها التلف، ليس ذلك غريباً فالحقيقة أن هناك من بقايا بعض الأغنياء ما يكفي لأن يعيل فقراء كثر، لو أنهم يحسنون قراءة الحياة ويشعرون بالآخرين لما كان هناك فقيراً ينام على الرصيف ولا طفلة تبتاع طفولتها بدلاً من ورق الريحان عند إشارة مرور يتخذها قساة القلب من البشر مشهداً يمتعون أعينهم به في دقيقة الانتظار.

شيئاً فشيئاً قل مروري عليهم إلى أن انقطع تماماً، لدخولي في زحمة متطلبات هذه الحياة وانغماسي الشديد في الدراسة ومحاولة تعويض الوقت الذي أهدره في العمل لأبقى في مستواي المتقدم، وحين جاء العيد بعد عامٍ من الغياب عزمتُ أمري على أن أحمل لهم هذه المرة الكثير من الفاكهة وأذهب لأزورهم، وحين ذهبت وجدتهم، لكن لم يكونوا هم نفسهم الذين أعرفهم، بسطة كتب عمي أبو أيمن ما زالت كما هي، ذات المكان وذات الكرسي وذات الكتب التي لا تتناقص أبداً بسبب تناقص ثقافتنا، حتى الكرسي الخشبي الذي كان يجلس عليه ما زال مكانه، إلا أن من يجلس هو رجل آخر يشبهه بملامح الزمن المرسومة بالتجاعيد على وجههِ، التفتُ أبحث عن أولئك الذين تركتهم هنا، فوجدت صغاراً آخرين، كل شيء كان على ما هو عليه لكن من كان يلعب دور البطولة في مشهد الحياةِ الميتة هذه قد تغيروا.

اقتربتُ منه وسلمت عليه وتفقدت الكتب وكأني أبحث بينها عن عيون ذاك الرجل الغريب، سألني إن كنتُ أبحث عن شيءٍ فأجبته فوراً، أين عمي أبو أيمن؟

قام الرجل من مكانه وجاء نحوي وقال: أنت بلال، أليس كذلك؟ أجبته باستغراب شديد نعم أنا هو، فمن أنت وأين عمي أبو أيمن؟ قال لي انتظر هنا وغاب قليلاً ثم عاد يحمل بيده كتاباً وقال لي تفضل هذه أمانتك التي تركها لك أبو أيمن قبل وفاته بخمسة أشهر، لقد أخبرني أنه سيأتي شابٌ يشبهني أول ما سيفعله هو أنه سيسألك عني أعطه هذا الكتاب؟

أمسكتُ بالكتاب بدون وعيٍ وكأن يدي تتساقط مني شيئاً فشيئا، وبدون أي كلمة تركته وذهبت، وقفت هناك في ذات المكان الذي كنتُ أقف فيه قبل عام، أنظر إلى رفاقي وهم يزاولون مهنة الموت في ظل الحياة التي لا تتقن الحياة، بدأ شريط الذكريات يمر من أمامي كأنني أعيشه اليوم، لم أكن حينها قد

استوعبت قضية موت شبيه والدي، أو ربما أني كنتُ أهرب من التفكير في ذلك بتفكيري بالصغار أمامي، ذلك أن مقابلة رحيلٍ أزلي كهذا كفيل بأن يجعلك تحملُ وجعه كاملاً، ما سبقه وما سيكون بعده، لكنه سيكون هروباً مؤجلاً فمثل هذه الذكريات لا يمكن أن تتركنا وشأننا، لابد أن تقتات من حزننا بما يكفي ليجعلها قادرة على مواصلة الحياة في ذاكرة أشبه بملجأ للُقطاء الذين لا ذنب لهم في الحياةِ سوى أنهم كانوا نتيجة لعابثين يملكون الحياة وهم لا يستحقونها، قطع هروبي هذا صوتٌ أعرفهُ جيداً وكأنه أمسك بي كي لا أبتعد أكثر، كانت طفلةً سمراءَ الوجنتين كأن وجنتيها قطعة غروب، عيناها متعبتان تخالهما قمرين في نهاية الليلة يستعدان للنوم، ابتسمت وقالت اشترِ مني هذه الحلوى، كنت أرى أمامي ياسمين، في كل تقاسيم وجهها وابتسامتها وطفولتها، تلك التي كنتُ كلما رأيتها معنا عرفت ماذا يعني أن تُكتب قصيدة على رصيف الشوارع، وهي

كانت قصيدة، تبحث بين عجلات السيارات عن قارئ يتقن قراءتها، يعرف معناها، ينتشلها من بين حضن المعاناة إلى حضنٍ يليق بها. ابتسمت وقلت لها:

- ما هو اسمكِ؟
- إيمان
- ومنذ متى وأنتِ هنا؟
- من شهر واحد فقط، أنا وأخي.
- لقد كان هنا أيضاً أطفال مثلكم، محمد وعلي وطفلة تشبهكِ اسمها ياسمين.
- لا أعرف، ربما انتقلوا لمكان أخر، هؤلاء من تراهم هم فقط من يعملون هنا.

بعد لحظات من الشرود العقلي في ظل هذه الزحمة المتعبة من الأفكار ابتسمت لها وأعطيتها ما كنت أحمله وقلت لها أن توزعه على رفاقها وذهبت.

عشر سنوات قد مرت منذ تلك الليلة، أستطيع أن أراها تماماً كما لو أني حينها الآن، ذاك المساءُ كان يشبهُ مسائي هذا جداً بكل تفاصيله، طقوس الكتابة واحدة حين تكون عن الفقد، ورقة وقلم مهترىء وكثير من الحزن، لقد كنت حينها أكتب عن فقدٍ في داخلي، وكلما انتهيت من كتابةِ شيء تركت سطوراً فارغة لإيماني أن هناك فقداً أخر سيأتي، ولم يخيل لي أبداً أني حينما سأعود للكتابة عن فقدٍ آخر، سيكون رحيلي.

كتبت ليلتها كثيراً، وبكيتُ أكثر، كانت كل كلمة أنتهي منها تتحول لخفاش ليلٍ يحلق فوق رأسي، حتى باتت غرفتي سوداء جداً، كقاع فنجان قهوتي السادس أمامي، وفاة أبو أيمن كانت الوجع الأكبر في تلك الحكاية، ذلك أن الأشياء التي تتطلب أن تبكي عليها في هذا الرجل كثيرة، ولهذا كنت شديد التعلق به، فهو بذاته كان بالنسبة إلي يمثل وطناً كاملاً، في وجههِ كنتُ أقرأ تاريخ قضيةٍ باتت كامرأة غير صالحة

للحُب عند الساسة والمُلاك وأشباه العشاق، وفي شعره الذي لم يسمح لي أن أعرف عنه شيئاً كنتُ أؤمن أن ثمة حياة أجهلها، وفي فقره وبسطته وكرسيه الخشبي ونظارته القديمة كنتُ أرى خارطة لشيءٍ كبيرٍ كلما ازدادت قسوته ازددنا تعلقاً به.

والليلة يمنحني هذا الراحل فرصة للكتابة، هذا الشيء الذي عاش حياته من أجل أن يراني أفعله، يا لغرابة القدر وغرابتنا، هناك من يقضي حياته كلها وهو يحاول أن يُهدينا شيئاً، ولا نعرف ذلك إلا حين رحيله عنا.

التفاصيل البسيطة كهذه والتي نعتاد عليها تصبحُ جزءًا من حياتنا ثم ترتقي لتتخذ مكاناً في قلوبنا ليؤهلها ذلك أن تصبح في ذاكرتِنا . . كأبي أيمن مثلاً وكالصغار الذين لا أدري أين آلت بهم الدُنيا بعدما اقتاتت على طفولتهم بقدرٍ يمنحها مواصلة القسوة أكثر، كثيرة هذه التفاصيل في حياتنا لكننا لا نعرفُ قيمتَها إلا حين نفقدها، والفقدُ أحياناً يُصيبُنا بتوحدْ، بتغرب، بأن

كيفَ ستكونُ حياتنا بدونها، لا نحنُ تقبلُ أن نأتي بغيرها وفاءً لها ولا نحن نستطيعُ أن نحيا بها لشدة ألمها.!

ربما لأجل ذلك نهربُ إلى الكتابة، إلى توثيقِ هذه التفاصيلِ بالقلب، فهي الشيء الوحيد الذي لا يرحلْ، حتى وإن نحنُ أصحابهُ والسببُ في حياتهِ قد رحلنا.

كان هذا المساءُ يا أمي جميلاً بكِ وبعينيكِ، لدرجة أني شعرتُ بكل مساءٍ كنتُ أقضيه برفقتك، خاصة تلك المساءات التي كانت تمتلئ بكل شيءٍ سواي،

بكِ وبالقصيدة الدرويشية التي لا يريدُ لها أن تنتهي .. وبالمساءِ وهو يعزفُ سيمفونية البقاء لراحلٍ لن يأتي، وبالكتابةِ التي أتمناكِ مثلها على الرغم من كل شيٍ إلا أنها لا ترحل،

وبفنجانِ القهوةِ الثالثِ الذي يجلسُ بجانبي فيصابُ بالبردِ مثلي فتأتين " متذمرةً " وتحملينه لأنه لم يعد صالحاً للشربْ، وتتمنين على هذه الأوراق أن تنتهي علَني أبتعدُ عنها قليلاً.

كنتِ جميلةً جداً ،

جميلة لو أنكِ كنت تعلمين أنه بإمكانك أن تجدي حلاً لكل هذا.

الأمرُ كلهُ يتوقفُ على أن تتمني لطفلكِ الصغيرِ أن يُصاب بوعكةٍ صحية تفقدهُ الذاكرة إلى الأبد.

كانت ستنتهي حينها قصيدةُ درويش،

وسيتوقفُ المساءُ عن العزفِ

وسوف لن تصاب " قهوتُكِ " بالبردِ بعد اليومِ أبداً ،

وسأهُديكِ أنا هذه الأوراق، الخالية من أي حرفٍ

سوى قصيدة واحدة عنوانها " أنتِ "

لو أنَكِ كنتِ تعلمين فقط

لو أ .. نـ . . كِ . . كنتِ تعلمين !

❖❖❖

❖❖

"يقول حسين البرغوثي:"عندما يفقد أحد ماضيه تماماً، تستطيع أن تصنع بمستقبله ما تشاء، لأنه قد فقد « ظله » الممتد في التاريخ.

وأنا أردتُ معكِ أن أفقد كلَ يومٍ عشتهُ قبل أن أعرفكِ، أردتُكِ ماضٍ وحاضرٍ ومستقبل، أردتُ أن أحبكِ مداد هذا التاريخ الذي يقول عنه حسين، كلُ الرجال حين يُحبون النساء يريدونهم زوجة، وأماً، وصديقةً، إلا أنا، أردتكِ شيئاً أكبر من ذلك، فنحن نريد الآخرين على قدر حاجتنا، وأنا كانت حاجتي لوطن، أعترفُ لكِ اليومَ بكل ما أوتيتُ من عُمرٍ قبلكِ، وحُبٍ معكِ، ووجعٍ بعدكِ . . أنكِ كُنتِ وطنْ . . !"

ما لم أقلهُ لكَ ،، !

الليلةُ الثانية..!

الجميعُ هُنا ينتظرُ الصباحَ أن يأتي ليمارس بعضاً من حياتهِ التي سرقها منه المرض؛ إلا أنا فإني أنتظر المساءَ الذي سيأتي منذُ اللحظة الأولى التي أضعُ رأسي على الوسادة كي أنامَ في المساء الذي يسبقهُ، أنتظر اللحظاتِ التي سأكتبُ فيها شيئاً سيبقى، كلُّ ما أخشاهُ في كل مساءٍ بعد جرعات الأدوية والفحوصات هو أن يكون هذا المساءُ الأخير قبل أن أنتهي من كتابة

ما لم أقلهُ لكِ، أقصى ما أتمناهُ من الحياةِ: أن تمنحني قليلاً من الليالي؛ لأكتب فيها مقابل الخمس والعشرون سنةٍ ولن أطالبها بحقي فيها بعد ذلك أبداً.

لطالما آمنتُ أن أولئكَ الذين يُتقنونُ فنَ الحرفِ، هم القادرونَ على إتقانِ فن البقاء، هم القادرونَ على أن يَخلقوا لهم ذاكرةً أخرى غير تلك التي نحملُها، ذاكرةً أشبهَ بالوطنِ الذي يسكنُ المنفى، لذلك أحتاجُ أن أكتب أكثر، أحتاجُ أن أرسم للمتعبين مثلي خارطةً أخرى غير جغرافيا هذه الأرض، تتسعُ لمساحةِ رأسي كي أنام قليلاً ولو لمرة واحدة ولا أحلم.

كان الصباحُ جميلاً، على قدرِ خوفِ منهُ أن لا يسمح لي بعبوره نحو المساء؛ إلا أني امتشقت نورهُ بقلبي وسرتُ نحو الحديقةِ أتنفسُ عبق الحياة منها وأرى الحساسين التي تطير من غصنٍ إلى غصنٍ بدون خوفِ من أن يَسلبَ صوتها أحد، كان كلُّ شيء منسقاً، يبعثُ في النفسِ سكينةً وطمأنينة، كانت "سيلينا" الشقراء تحاولُ أن تُطعمَ أحدَ المرضى الكبار في السن، وهو يُصر على

الرفض! سيلينا هذه لم أعرفها إلا حين جاءت بالأمس لتأخذني لأخذ العينات وإجراء الفحوصات، أربعينية العمرِ عشرينية الوجه! ذلك أن ابتسامتها كنافذةٍ صباحية بمجرد أن تزيل ستارَ الليل عنها يخترق الصباحُ قلبك وعينيك، قالت لي بعدما انتهيت من الفحوصات:

- لم أر على مدار العشرِ سنوات التي عملت بها هنا مريضاً هادئاً مطمئناً، الذين يصلون إلى هذا المكان تُصبح أيامهم معدودة، أراك تبتسمُ بدون خوف، ألست خائفاً؟

لم أكن خائفاً حينها، لكني أحسستُ بخوفٍ من سؤالها، لم أفكر في الموت من قبل، كلُّ ما كان يشغلني هو ما الذي سيكون بعدي، ربما لأننا حين نتعلقُ بأشخاصٍ ونسخر حياتنا لسعادتهم، لا نعود نفكرُ بالذي يلحقُ بنا جراء ذلك؟ من أجل هذا كنتُ أفكر في الكتابة فقط! فأنا لا أملكُ في ظل هذا المرضِ والعجز قوةً غيرها، ولم تسمحْ لي الحياة أن أفعل

شيئاً يبقى خالداً، فبمجرد أن تخرجتُ من الجامعة، حملتُ حقائبي وجئتُ إلى هنا لمحاولة الإبقاءِ على شيء قبل أن أغادر إلى الأبد... قلتُ لها:

- لو كنتِ مكاني، أتخافين من الموت؟
- لستُ بحاجة إلى أن أصاب بالمرض كي أخافه، أنا أخافه في كل لحظة،
- الخوفُ يا سيدتي يتوقف على تعريفنا للموت، فمثلاً أنا أعرِّفه أنه نقطةُ الانطلاق لحياةٍ أخرى، علينا جميعاً أن نمر بها، هكذا هو ديننا الذي نؤمن به، في ديننا ليست الحياة هي التي نعيشها الآن بل هي التي ستكون بعد الموت.
- منذ اللحظة الأولى التي عرفتُ فيها أنك " مسلم " حاولتُ أن أتجنب الحديث معك فدينكم يُخيفني، لكن لا أدري ففي كلامك شيء يلامسُ قلبي، لم يحركْني كلامك بقدر ما حركني ذاك الاطمئنانُ الذي فيك وأنتَ تقوله، أنت غريبٌ يا بلال، غريبٌ جداً.

- الخوفُ نحنُ من يأتي به وليس الأشياء الأخرى التي نخاف منها، كالموت مثلاً، في حياتكم هناك علاقة قوية بين الخوف والموت، في حين أن الحقيقة أن الموت لا يُخيف إلا من آمن بذلك، وعني أخَفْ، لكن ليس منهُ، بل من أن يأتي قبل أن أكون مستعداً للقاء الله، أخافُ أن تكون كل هذه الحياة التي قضيتها لا تُرضيه، لكن أتعلمين، على قدر هذا الخوف؛ إلا أنني أشعرُ براحةٍ لا يمكن لمثلكم أن يشعر بها؛ ذلك أننا نؤمن تماماً أن بعد الموت لقاءً، لقاءً مع من سبقونا، وأنا أشتاقُ لأبي . . أشتاقُ له كثيراً.

***

لم يكن هذا الرجل العجوز الذي يرفض تناولَ الطعام مختلفاً كثيراً عن "سيلينا"؛ على الرغم من أنها بريطانية وهو أمريكي؛ إلا أنهما يحملان نفس القناعات عن الحياة والموت، رأيتُ في عينيه من الخوف ما رأيته في

عينيها حين ناقشتها، اقتربت منهما وجلست بجانبه وأخذتُ منها الطعام ووضعته بيننا فتركتنا وذهبت، نظرتُ لعينيه.. كان البياض فيهما لا يُرى من شدة الاحمرار، لحيته بيضاءُ طويلةٌ ناعمة، وشعره كثيفٌ لا تكاد ترى من وجههِ سوى مساحة صغيرة، يُصيبك التحديق في ملامحه بالرهبة، ويخال إليك أنه راهبٌ أو جنيّ! ابتسمتُ له... لم يبادلني بمثلها، قلتُ له بلغتي الإنجليزية المتواضعة:

- هل لديك عائلة؟

لم يجبني؛ لقد توقعت ذلك، رجلُ مثله يخاف ممن حوله، وخاصة نحنُ، أمواتٌ نسير أمامه وخلفه، قلتُ له:

- كل لحظةٍ نعيشها هي حياة بحد ذاتها، انظر حولك، هذه الطبيعة وهذه الزهور، وهذه الطيور هي حياة لا تتوقف! إن كنت تخاف من الموت فلماذا تعيشه قبل أن يأتيك؟

أحسستُ بأن هناك شيئاً سرى في جسده حتى وصل لوجهه، التفتَ إلي بعينيه الذابلتين وقال:

- بعض الناس يكونون على قيد الموت في ظل الحياة، وبعضهم يكون على قيد الحياة بعد الموت، وأنا أقف بينهما... لا أنا ميتٌ في حياتي ولم أترك شيئاً لأكون حياً بعد الموت، والوقوف في هذا المكان كفيلٌ أن يجعلك غريباً، وحيداً، لستَ تدري هل أنت في لقاءٍ مع روحك أم أن روحكَ قد ذهبت وتركت جسدك هنا يتقاذفه المرض.

كُنت أعرفُ أن فيه من الحكمة ما يكفي لأن يجعلني أنا البعيد عن كل شيء أقترب منه، وكما هذا الرجل معلق بين الحياة والموت، جعلني مترنحاً بين الاقتراب منه والابتعاد عنه، فمنذ صغري وأنا يستهويني كبار السن؛ خاصة أولئك الذين أصيبوا بمرض الذاكرة المثقبة، الذين يُهذون باللامعقول واللامنطق، كانت مهمتي هي أن أقتنص من بين كل كلماتهم حكمةً شاردة أو

خرافة من الممكن أن تكون في عالمٍ أخر حقيقة. قلتُ له:

- هل تؤمن بشيء؟
- بزوجتي.
- لماذا؟
- الإيمان عندي هو الصدق، وزوجتي الوحيدة في هذا العالم التي كانت صادقة جداً، فقد قالت لي حين تزوجتُها، أنها لن تتركني أبداً.
- وأين هي الآن؟
- ماتت منذُ شهرٍ، وجئتُ بعدها إلى هنا؟
- بما أنها ماتت فقد تركتك، فكيف تكون صادقة؟
- حين اتخذت قراراً بأن تبقى معي ولا تتركني، هي من أخبرتني بذلك؛ لكن حينما ماتت لم تخبرني أنها تركتني، هي صادقة إذن! صادقة لدرجة أنها اتخذت من الموت إجابة لا تجعلها كاذبة، إن أقسى شعور من الممكن أن تشعر به

هو أن تكون معلقاً بين الحياة والموت، بين السؤال والإجابة، بين الصدق والكذب.

- لماذا لا تأكل إذن؟
- أحاول ألا أبقى بين الحياة والموت، ولأني لا أستطيع العودة للحياة بسبب هذا المرض : أريدُ أن أصل للموت..!
- تريدُ أن تلتقي بها؟
- ليس مهماً؛ فلستُ أؤمن أن ثمة حياة أخرى، كل ما في الأمر هو أنني أريدُ أن أجرب ما جربته هي لأؤكد على صدقها أنها في مكان لا يمكنها من أن تفي بوعدها لي.

هذا الرجل أضاف لي شيئاً أخر في هذا المكان بعد علاء وسيلينا والوردة البيضاء والحساسين وغرفتي، ووجوده في يومي الثاني كان كفيلاً أن يجعلني أكتبُ عن الموت والخوف والحياة في الليلة التي كنت أود أن أكتب فيها لكِ.

وأن أحاول قدر الحرفِ أن أمنع وجودكِ بين كل ما ذُكر من كلمات في حين أني لستُ أكتب دون أن أمنحَ عينيَّ قبساً من حنينٍ من عينيكِ اللتين أخبئهما أمامي عن كل شيء حولي سواي، ذلك أني لا أريُد لكِ مكاناً بين أي ألمٍ، ذلك أني أريدُ منكِ حين تأتي لهذه الأوراق أن أكون قد هيأتُ لكِ ربيعاً ينمو على كفيكِ حروفاً وقصائدَ لا موتاً ورثاءا...

هذا الذي لا يؤمن بشيءٍ في الحياةِ آمن بزوجته، ولستُ أعتقد أن إيمانه بها بقدر إيماني بكِ، ذلك أن إيمانه يأتي مجرداً من كل شيء سوى وعدٍ منها له، وأنتِ لم تكوني مجردَ وعدٍ؛ بل كنتِ تفاصيل حياةٍ بأكملها، كان إيماني بحبكِ كافياً أن يمنحَ القلب نبضاً جديداً يعينه على كتابة هذه الرسالة.

أتعلمين يا مريم؟ اكتشفتُ معكِ أن العلاقة التي لابد أن تجمع الآخرين ببعضهم هي علاقةُ إيمان، وهذا الأمر يتعدى مرحلة الحُبِّ بكثير،

أنْ أؤمنَ يعني أنَّ ما دونَ ذلك يكون أمراً بسيطاً جداً، أنَّ الاختلافات والحدود والكلماتِ مجردُ أشياءٍ عابرة. وأنا أعترفُ لكِ اليوم لأول مرةٍ أنني أؤمنُ بك جداً . . أؤمنُ بأن لا أحد يشبهُني مثلكْ.

أخبرتُكِ قبل الغيابِ كم هو قاسٍ هذا الوطنْ، كان قلبُكِ طيباً لدرجةِ أنكِ تناسيتِ كل ما فعلهُ بنا، وأخبرتِني أن الوطن ليس قاسياً علينا؛ بل نحن أحياناً نكونُ ثقيلين عليه !

وها نحنُ الآن وحدُنا المنفيّون بدون وطنٍ ولا حُبٍّ ولا خارطةٍ، أتُراكِ قد قسوتِ عليه؟ حاشاكِ فمثلك لا يقسو . . أتُراكِ كنتُ ثقيلةً عليه؟ حاشاكِ فمثلك كالغيم يمرُّ بهدوءٍ على القلوب ولا يُعرفُ ذلك إلا من خلال المطر.

ها أنا أحملُ حِمْلَ وطنٍ بأكملِه في غرفةٍ صغيرةٌ جدرانُها بيضاءُ وبها صوتُ الجهاز المزعج الذي لا يتوقف عن الغناء على وجعي؛ ليخبرني أنني ما زلتُ حياً. . .

هذه الليلةُ أحتاجُك؛ على الرُغم من أنك من يحتاجُني، وأريُد لك الحياة؛ على الرُغم من أنني سلبتها منك في

لحظة ضعف، وأريدُ لكِ أن تعودي وطناً؛ على الرغم من أنني صيّرتُ لك الأوطان منفى . . هذه الليلة ليست سوى البكاء حرفاً، والكتابة شوقاً، والاستقالة من كلِ شيءٍ سواكِ.

****

ما أفعلهُ هذه الليلة من ممارسةِ العبث بالكلماتِ محاولاً صياغةَ – بلال – ما قبل المرض ليبقى معكِ، ليست فقط كتابةً؛ بل أيضاً لأواجه به هذا المرض الذي يقتاتُ عليَّ كل ليلةٍ؛ لأني أقتاتُ على الحياة من أجل الكتابة.

خشيتُ كثيراً من أن يتوقف النبضُ قبل هذه الليلة بالذات، كنتُ أرمي نفسي في كل ناحية من جنبات المستشفى كي لا أشعر بالساعاتِ وهي تمر ثقيلةً علي لأصل للمساء، فألتقي بكِ على هذه الورقة، كُرسيُّنا الحرفُ وأنا الجالس الوحيد وثالثُنا الغياب، وأبقى أكتبْ.. أكتبْ.. أكتبْ.. وأهُذي.. أهُذي.. وأرمي بالحروف من الذاكرة إلى القلب وأعيدها من القلب إلى الذاكرة؛ علنّي أصل في النهاية إلى قصيدةٍ واحدة تأتي بكِ إليَّ فأقولَها أمامَ عينيكِ.. وأغفو! نعم أغفو دون خوفٍ من ألا أصحو مرة أخرى، فاللقاء معكِ على كرسيِّ الكلماتِ لا ينتهي بعد أن تغادري، لأن ما يحكمه هو الشعور وليس الحضور، وأنتِ مثلك لا يغيب أبداً،

حاضرةٌ أنتِ في النبض والحرف والورقة والصوت، في ثقوب هذه الذاكرة التي أحملها فوق عيني، تتدلين منها على وجهي كلما حاولتُ الهروب لشيءٍ سواكِ، فأنتِ بارعة جداً في إبقائكِ ظلاً لقلبي، لدرجة أنكِ حين كُنتِ تقفين في الجامعة وتقرئين قصيدتَكِ الشهريةَ في الصالون الأدبي، ومن ثم تنتهي ويأتي خلفكِ الواحد تلو الأخر، وإلى حين أن ينتهي اللقاءُ ويغادر الحضور، أبقى جالساً مكاني لا أرى أمامي سواكِ ولا أسمعُ سوى أبياتكِ وهي تتمايل خجلى بكبرياءٍ على نافذة أذنيَّ كالحساسين التي كلما كنا كريمين عليها بالشوق كانت كريمة علينا صباحاً بالحُب.

نحنُ حين نُحب كاتباً، فهذا معناهُ أننا قد سلَّمنا له أنفسنا دون أن نشعر، يكُتبنا كيفما شاء دون أن نملك الحقَّ في أن نقولَ له توقفْ! الكاتب هو الشخص الوحيد الذي يرتكبُ في حق من يُحب أكبرَ جريمةٍ ولا يملك القانونُ أي دليلٍ ضدَّه، هو الذي يُذنب في حقكَ دون أن

يرتكبَ معصية، هو الذي يستطيع أن يكون حاضراً في ظل غيابٍ لا يغيب. لأجل ذلك نستمرُ في الكتابةِ دون توقفٍ، إلى أن يأتيَ وقتٌ للقاء، حينها تستقيلُ كلماتُنا، وتتوقفُ أقلامُنا، ويأخذُ القلبُ دورَه في إكمال نص القصيدة . . !

وأنا أعترفُ اليوم لكِ أن كل ما كتبتهُ وما قلته وما شعرتُ به . . لا يساوي كلمةً كان يكتبُها القلبُ بصمت حين كان يلقاكِ . . !

أنا أحتاجُك يا مريم . . . وأن أحتاج أحداً معناهُ أنِّي أحملُ له كل أصناف الشعور المتداولة بين البشر، كالحُب مثلاً، كالشوقِ، كالحنينِ لأي شيءٍ حتى لو كان صغيراً مثلاً، كاللقاء الذي تستقيلُ فيه كلُّ الكلماتِ والأشعارِ مثلا

أن أحتاجُكَ يعني أن أجعلها مجردةً من كلِ الكلماتِ التي تليها، وأن أكتبَ خلف كلِ شعورٍ أخر حتى لو

كان حُباً، كلمة – مثلاً - لإيماني أن كل المشاعرِ التي يحملها البشر، لا تُعبِّر عمَّا في داخلي إليك . . !

في هذه الليلة سأعترفُ لكِ بأشياءَ كثيرةٍ كُنتِ ستعرفينها بعد الزواج، فنحنُ نبوح بكل أسرارِ قلوبنا للذي أحببناه وتمنيناه، فكتب الله لنا أن يكون سكننا ووطننا، وبما أنكِ لن تكوني سكني في الحياة، فلتصبح هذه الكلمات سكناً لمن هم مثلي، أولئك الذين وقف الوطن في وجه قلوبهم، منها ما شعرتِ به من القصائد التي كُنتُ أقولها، ومنها ما أقولُه لأولِّ مرةٍ منذُ عرفتُكِ؛ وليس هناك أصدقُ من الوصية لأكتبَ فيها ما تمنيتُ طوال سنين دراستي الجامعية أن أقولَه لكِ.

لم أكن أعرفُ عن العلاقات في هذه الحياة شيئا، لم يكن لي وطنٌ سوى صدر أمي، وأن يكون وطنَك الوحيدَ صدرُ أمك معناهُ أنك أحياناً كثيرةً ستُخفي عنه

وستهربُ منه أو تتوارى خلفَ ابتسامةٍ كاذبة؛ ذلك أنه الوطنُ الوحيدُ الذي لا يمكن أبداً أن تُهديه وجعاً، وأن لا تكون قد عشتَ حياةً عاديةً فهذا كفيلٌ أن يمنحكَ مسافةً كبيرةَ بينكَ وبين الآخرين، ومنذ اللحظة الأولى التي سمعتكِ ورأيتُكِ وأنتِ تقولين تلك القصيدة التي لن أنساها، لم أشعر لأول مرة أن بيني وبينكِ مسافةٌ، كان كل الحضورُ يراكِ شخصاً يمتشقُ الكلمات ويغني للوطن؛ إلا أنا، كُنت أراكِ قصيدةً! هل تذكرين؟ أما أنا لم أنسَ ذلك يا مريم؛ فعلى قدْرِ الألم الذي تحمله ذاكرتي هذه؛ إلا أن الشيء الوحيدَ الذي أحمَدُ اللّهَ كثيراً عليه فيها هو أنتِ.

قضية أن أدخل الجامعة كان هدفي الأول الذي استعذبتُ لأجله كلَّ الصعوباتِ، ولم أيأس يوماً في الوصول إليه! الطفولة اليتيمةُ المسروقةُ على أرصفة الشوارع كانت على الرغم من كلِّ شقائها؛ ابتسامةً أرسمُها على ثغر الحياة وأنا أنظر إليَّ بعد سنواتٍ إذ أصبحُ طالباً في كلية الهندسة، وأعيدُ ترتيبَ حياة

والدتي المبعثرةِ بيني وبين وحدتِها وبين فقدانها لأبي، وعلى مدار سنتي الأولى كلِّها كنتُ غريباً ومعلقاً بينها وبين عملي في التجارة، حتى رأيتكِ . . !

أحسستُ يومها لأول مرةٍ بإحساسٍ لا يمكن لي وصفَه مهما امتلكتُ من حرف وكلمة؛ لكني أستطيع أن أقول أني شعرتُ لأول مرةٍ في حياتي أن لي وطناً آخر، من الممكن أن ألجأ إليه حين تضيقُ بي الدُنيا، وطناً يختلفُ عن كل الأوطانِ الأخرى، وطناً لا أشعرُ فيه بوحدةٍ أو غربةٍ أو تعبٍ أو وجع، وطناً حين أغفو على راحتيه قليلاً أمتلكُ الدنيا...

وتوالت الأيام... وفي كل يومٍ تكبرين بداخلي أكثر، ومع كل قصيدةٍ كنتُ أسمعها منكِ كان يكبر حُلمي فيكِ أكثر، لم يكن هناك قدَرٌ أجمل من أن تكوني شاعرة؛ فالشعراءُ طيبون جداً، مرهفون جداً، يمتلكون قلباً غير قلب البشر، قادرون على أن يصوغوا من أي وجعٍ حبا، ومن أي منفى وطنا، ومن أي يُتمٍ كيتمي ملاذاً وأمنا.

الحياةُ المبعثرة التي كنت أعيشها، والمستقبلُ المجهول الذي كنت أحارب لأجل الوصول إليه، وعيون أمي التي تنتظرني كلَ يومٍ لأعانقهما، وخوفي من أن لا أكون على قدرِ الحُب، وقبل كل ذلك خوفي عليكِ، من شيءٍ لا يُظله اللّه بظلهِ، كل هذه الأشياء جعلتني أبُقيكِ في قلبي دعاءً لا يتوقف أبداً.

الأيتامُ قريبون جداً من اللّه، كُنت أشعر دائماً بذلك، أشعرُ أن في كل ليلةٍ تمر لا أرى فيها والدي ولا يمسح أحد على رأسي كان اللّهُ يبتسم لي، يطمئنني، يمسح بيديه على رأسي، يملؤني بالحياة، كُنت أشعرُ أنه يريد أن يعوضَني ويملأ الفراغ الذي خُلقتُ فيه، وهل هناك أجمل ولا أرقى ولا أحنُ ولا أبقى من أن يملأ فراغَ حياتِك وقلبك اللّهُ ؟

أبقيُتكِ دعاءً في كلِ سجدةٍ كنت أسجدها، في كل خلوةٍ كُنت أكون فيها مع ربي، وكم هي الخلوات

التي قضيتها وأنا أحادثه وأشكو إليه وأبكي بين يديه بكاءَ المُحب لحبيبه، كان هذا الأمر كافياً لأن يجعلكِ قريبة مني جداً، والأكثر من ذلك هو أن كل اللقاءات التي كانت حولي كانت في الأرض، يشهد عليها البشر في حين أن لقائي كان معك هناكْ، حين تصطفُّ الدعواتُ على بوابة السماء تنتظر أن يأذنَ اللّهُ لها بالدخول والقَبول، كُنتُ مطمئناً جداً، جداً، لأن اللّه شاهدٌ على حبي لكِ . . !

والحُب الذي لا يرضاه اللّه "لا يُتمُّه" ، لأجل ذلك كنتُ حريصاً كل الحرص أن أتقيه فيكِ، أن لا أعصيه خشيةَ أن يحرمني منكِ جزاءَ ما اقترفتْ يداي، كُنت أؤمنُ في ظل كل التعريفات التي تلوِّث الحُبَّ أن هذا الشعورَ شيئٌ آخر، لا يمكن لمن عاث فيه فساداً أن يشعرَه، لم أكن أراهُ في كفّين متعانقين في ظلِّ البشر لا في ظلِّ اللّه، لم أكن أراه في تلك اللقاءات والنظراتِ المترامية حولي في كل مكان، كنتُ أشعرُ أنه شيءٌ أكبر من

ذلك بكثير، شيءٌ مقدَّسٌ يعلو فوق الأشياء البشرية الآدمية، كُنت أراهُ وأشعرهُ كلما ذكرتكِ في "دعائي"، أؤمنُ أنه أن أسأل اللّه لكِ ما أسأله "لنفسي"، وأن أذكركِ بالخير حينما "تغيبين"، أن أحبكِ للّه وفي اللّه ولأجل اللّه، إلى أن يكتبَ اللّهُ لهذا الدعاء أن يتحقق، ويجمعَنا في حبه ورعايته، لأهمسَ لكِ في أول لقاءٍ بيننا:

- أتحبينني؟
- (فتقولي بخجلٍ) نعم، أحبُّك،
- فأقّبلُ عينيكِ وأقول: إذن خُذي بيدي إلى اللّه . . !

وأن تأخذي بيدي إلى اللّه، معناهُ أنكِ كلما رأيتِني حِدْتُ عن الطريقِ إليه أعدتِني، معناهُ أن نعملَ معاً بكلِّ ما أوتينا من إيمانٍ وتقوى؛ كي نلتقي في الجنة، معناهُ أنه حين يمنُ اللّه على أحدِنا برحمته وفضله ويكتبه من أهل الجنة، يلتفتُ حولَه؛ فإن لم يجد الآخر بقربه يسأل

ربَّه أن يكون معه فيها كما كتب أن يكون معه في الدُنيا . . !

لطالما قُلتُ أن الذين يجمعهم الفقرُ لا يمكن أن يفترقوا؛ لكن اليُتم أقوى منه وأكثر شدة؛ ذلك أن الأيتام يشعرون دائماً أنهم بحاجةٍ إلى من يُكمِّلُهم، وقدر الله أن آتي من زمنٍ بعيدٍ وأقفَ أمام عينيكِ، وأخطبكِ من الله بدعاءٍ وطنه السماء، من أجل أن تُكمِّليني، فتلتقي دعوتي ودعوتكِ هُناك لأجدَ أنكِ تشاركينني في اليُتم من الأب، والوطن، والحُب ، والدعاء أيضاً. . !

في نهاية السنة الدراسية الثالثة كانت قد حانت الاختباراتُ النهائية، وكُنت قد تغيبتُ عن الجامعة مدة شهرٍ كامل بسبب ضغطِ العمل ومرضِ والدتي، وكان لابدَّ أن أبقى بجانبها ليل نهار، كُنت قد عزمت الأمر على أن أطلب منكِ كلَّ ما فاتني منها، فلستُ أعرفُ سواكِ، وحينَ عُدتُ لم أجدْكِ، سألتُ عنكِ فأخبروني

أنكِ قد سافرتي لمصر مع والدتكِ حيث أنها ستجري عمليةً جراحية في عينيها أيضاً، في لحظة واحدة نسيتُ ما كنت قد جئت لأجله، نسيتُ نفسي وجامعتي وفكرتُ بكِ فقط، بأن كيف سأطمئن عليكِ؛ مع أني سابقاً لم أكن أفعل ذلك، لم يكن سوى اللقاء الشهري الشعري في الجامعة الذي كُنت أنتظرهُ بفارغ الشوق، حتى ذاك اللقاء كُنت أتحاشى النظر إليكِ مباشرةً، مع أني أكونُ حينها ممتلئاً بالحنين، لا أدري لماذا؟. لستُ أتفقُ مع أولئك الذين يقولون أن اللقاء يطفئ الشوق، لو كان ذلك صحيحاً فلماذا كُنت كلما رأيتكِ أو سمعتُكِ تقولين قصيدتكِ احترقت شوقاً أكثر، ربما يا مريم كُنت أفعل ذلك كي لا أخافَ أكثر . . !

وأنا قبلكِ لم أكن أعرف ماذا يعني الخوف؟، نحن لا نخاف قبل امتلاك الأشياء؛ بل بعدها، بمجرد أن نمتلكها نصاب بالخوف من أن نفقدها، ومنذ أن سكنتِ هذا القلب بتُّ أخاف أن أفقدَكِ ككل الأشياء

الجميلة في حياتي التي فقدتها، لطالما سألتُ نفسي: أكان قدر الله أن أتعوَّدَ على الفقد منذ أن وُلدتُ كي يكون فقدكِ هيِّناً؟ أترنح بين عدةِ تساؤلات وإجابات موجعة، وأن تكون في منتصف الطريق بين السؤال والإجابة أمرٌ متعبٌ جداً، أحقاً لن تكوني لي كباقي الأشياء؟، أم أن الله أخذ مني كلَّ شيء ليعوِّضَني بكِ؟، لا أدري يا مريم، لا أدري، لم أكنْ أفكر بشيء سوى أني أريُدكِ، فأنتِ الوحيدةُ التي تُشبهني إلى حدِ الكفاية من أي شيءٍ أخر، تملؤني أمناً وسكوناً كلما فكرتُ بها ودعوتُ الله لها.

يقول حسين البرغوثي "عندما يفقد أحد ماضيه تماما، تستطيع أن تصنع بمستقبله ما تشاء، لأنه قد فقد « ظله » الممتد في التاريخ".

وأنا أردتُ معكِ أن أفقد كلَ يومٍ عشتهُ قبل أن أعرفكِ، أردتُكِ ماضياً وحاضراً ومستقبلا، أردتُ أن أحبَّكِ مدادَ هذا التاريخ الذي يقول عنه حُسَيْنُ، كلُّ الرجال حين

يُحبون النساء يريدونهم زوجةً، وأماً، وصديقة؛ إلا أنا.. أردتكِ شيئاً أكبر من ذلك، فنحن نريد الآخرين على قدر حاجتنا، وأنا كانت حاجتي لوطن، أعترفُ لكِ اليومَ بكل ما أوتيتُ من عُمرٍ قبلكِ، وحُبٍ معكِ، ووجعٍ بعدكِ . . أنكِ كُنتِ وطنْ . . !

قبلك يا مريم كُنتُ أكتبُ في لقاءٍ مؤجل، ولعيونٍ مؤجلة، ولحُبٍ أؤمنُ جيداً أنه إن أتى سيحيلُ هذا القلب عاصفةً لن تهدأ، وكنتُ أصحو وأنام وأحضرُ وأغيب وأسترقُ الحُلم بهدوءٍ كي لا أُزعِجَ صاحبهُ، واليوم أعترفُ وأنا أقفُ على مسافةٍ بين الموت وعينيكِ أن كلَّ الأشياءِ التي كُنتُ أفعلُها عبثٌ / سرابٌ / لا شيء، أمام حقيقةٍ واحدة هي المثولُ متَّهَماً بكِ أمامكِ والشكوى أنتِ والقاضي عيناك.

هل تذكرين في مطلع العام الدراسي الرابع حينما أعلنت الجامعةُ عن مسابقة أدبية في الشعر والقصة القصيرة، طرتُ فرحاً حينها؛ لأن شيئاً أخرَ سيمنحني

فرصة لقائكِ حتى لو كان هذا الشيء ورقةً وبضعَ كلمات، وعزمتُ أمري على المشاركة، لم يكن هذا القرار بالسهل فهي المرة الأولى التي سأظهر بها أمام الناس بعد أن قضيتُ جلَّ عمري خلفهم أسترقُ النظراتِ للأشياء التي أحبها دون أن أقتربَ منها لأني أعلم أنها ليست من حقي، وحان وقتُ المنافسة، ليتقدم كل مشترك ويلقي ما كتبَه أمام الطلبة جميعاً ولجنةِ التحكيم، كُنت قد كتبت قصة قصيرة عن حكاية والدي، وكيف وُلدتُ دون أن أراه؟ وكيف اغتاله الاحتلال الصهيوني عن طريق أحد عملائه بوضع قنبلة في سيارته، كان المُدرَّجُ ممتلئاً؛ لكني لم أكن أرى سواكِ، ولم يكن يُهمني نتيجة المسابقة بقدر ما همني أن أتحدثَ إليكِ، أشكو إليكِ، أخبركِ بقصتي المعلقةِ بيني وبينكِ، هكذا هي الكتابة، نكتبُ فيقرأ الآخرون ما كتبناه في حين أنها تستقرُ في قلبٍ واحد قد كتبت لأجله.

قمتِ فجأةً من مكانكِ الذي كنت تجلسين فيه بجانب المشتركين، وخرجتِ من القاعة، توقفتُ قليلاً، لم أستطعْ حينها أن أخفي ما أصابني من توتر وقلق، أكملتُ القصةَ بشعورٍ أخر غير الذي بدأت به، كان كل تفكيري معكِ، وحين انتهيت وقف كل الحضور وبدأ بالتصفيق، مسحت دموعي ولم أشعر بشيء حولي، خرجتُ فجأة من القاعة أبحث عنكِ كطفلٍ فقدَ أمَّه في وسط زحمة من الناس، وجدتكِ تجلسين بعيداً عن القاعة وتبكين، إقتربتُ منكِ، ليس هناك أكثر وجعاً من أن ترى دمعاً في عيون من تُحب، والأكثر وجعاً من ذلك هو أن تشعر أنك السبب في ذلك، كانت أكثر اللحظات صعوبة التي عشتها في حياتي يا مريم، كُنت أتمنى لو أستطيع أن أمسحَ بكفي دموعكِ، لكن مخافة الله كانت بيننا.

- أعتذرُ منكِ . . لو كُنت أعلم أن القصة ستبكيكِ ما قُلتها

وقفتِ وأنتِ تمسحين دموعكِ وبحياءٍ دون أن تنظري إلي قلتِ لي:

- لا عليك . . رحم اللّه والدك، كان بطلاً
- ورحم اللّه والدكِ أيضاً . . !
- والدي؟ . .

قلتها ثم امتلأت عيناكِ بالدموع مرة أخرى، وتركتِني وذهبتِ، نظرتُ إليكِ وأنتِ تغادرين، كان كلَّ ما حولي ظلاماً في ظلام، كيف لا؟ وأنا لا أعترفُ بمنطقٍ للنور سوى عينيكِ، عرفتُ حينها أن ثمة سر في هذه العيون يجعلها حزينة، وأن ثمة وجع لا يضاهيه وجع، لكن ما هي العلاقة بين حزنك وقصتي، لماذا تزامن بكاؤكِ مع كلماتي أنا بالذات، هل الأمر متعلقُ بي أنا أم بالقصة أم بوالدكِ أم بكِ؟، أين الرابط بين كل هذه الأشياء كي تتجمع في عينيكِ وترويها دمعاً؟

كانت هنا سيلينا قبل قليل، فالساعة الواحدة فجراً موعد الدواء، طلبتُ منها أن ترافقني صباحاً للسير في شوارع ميونخ، أحتاجُ أن أخرج من هذا السجن قليلاً، أتنفس هواء غير هذا المعبق بأنفاس المرضى والدواء، أريدُ أن أقابل حياة مجردة من أي شيء، أريدُ أن أرى وجوهَ أناسٍ لا أعرفها، أشعر بالطمأنينة مع الغرباء يا مريم، لا أدري ربما لأني أشبههم، ربما لأني عشتُ حياتي كلها غريباً . . وافقت على الفور؛ لكن بشرط أن لا نتأخر فغداً الفحوصات النهائية قبل العملية، تمنيتُ الآن لو أني أستطيع أن أخبركِ أني أحتاج دعاءكِ؛ لكن من المؤلم أن هذه الكلمات ستصلك بعد رحيلي عن الحياة، أو ربما – وهذا ما نسبتهُ قليلة جداً – إن بقيت حياً ونَجَحَت العملية؛ لكني واثقُ أن هناك شيء حولي منكِ، لا أدري ربما دعوة منذ زمنٍ أو أمنية تمنيتها لي بقلبكِ بعدما عَرَفْتِ بحبي لكِ، وأظنها كافيةً، فالدعواتُ من قلبٍ كقلبك تبقى عمراً أكبر من

عمرنا، أستطيع أن أحملَها معي وأسير بها قوياً، مطمئناً.

بعد انتهاء العام الدراسي الرابع كان عليَّ أن أشترك مع مجموعة أخرى من الزملاء في مشروع التخرج، وبدأتُ في الصيف بالبحث عن موضوع مناسب لذلك، وكنتُ قد اتفقت مع زميلٍ اسمه رامي، لم يمر الكثير من الوقت حتى اشتدت صداقتنا، كان فيه الكثير من الصفات التي أحبها؛ على الرغم من أن والده كان غنياً جداً إلا أنه كان متواضعاً وطيباً، سحرتني بساطته وعفويته، وبدأنا بالعمل في المشروع مع بداية الفصل الدراسي قبل الأخير، كان ذلك يحتم علينا أن نلتقي دائماً، إما في بيته أو في بيتنا، تعرفتُ على أهله وتعرف على أمي، وبات جزءً من حياتي.

في أحد الليالي تأخرتُ في بيته كثيراً، وكانت عيادةُ والده مقابلَ المكان الذي كنا ندرس فيه، جاء والده

وجلس قليلاً معنا، والغريبُ أني اكتشفت أنه يحب الأدب والشعر جداً على العكس تماماً من ابنه الذي كان دائمَ الاستهزاء بي لأني دائمُ الحديث بالأدب والشعر، ودار بيننا نقاشُ طويلُ حول ذلك حتى قطعنا رامي وقال لوالده: من شدة تعلقه بالشعر يريد أن يتزوج بشاعرة، نظرتُ لرامي نظرة لومٍ وعتاب فلستُ أحب الحديث عنكِ حتى بيني وبين أقرب الناس لي، سألني يومها والده ما اسمها؟ قلتُ له: اسمها مريم وأكملتُ اسم والدكِ، كانت تلك المرة الأولى التي أذكر فيها اسمك أمام أحد، حتى أمي لم تكن تعرف شيئاً بعد، كنت أنتظر أن أنتهيَ من الجامعة للحديث في الأمر، صمت والده قليلاً حينها وسألني: هل تعرف والدها يا بلال، قلتُ له لا يا عماه، لا أعرف عنها شيئاً بعد، فالأمر ما زال يحتاج لوقت طويل، وقف من جلسته وقال لي: حسناً هل تثق بي، قلتُ له بالتأكيد، قال لي: دعك من هذه الفتاة، فهي لا تليق بك، ابحث عن فتاة أخرى ذات حسبٍ ونسبْ، قمتُ من مكاني لا أكاد أستطيع

التنفس، اقتربت منه وسألته، ماذا هنالك يا عم؟؟!! لماذا تقول ذلك؟ هل تعرفها؟ هل تعرف والدها؟؟ همَّ بالخروج وقال لي إن كنت تثق بي وتعتبرني كوالدك، لا تسأل كثيراً واصرف نظرك عنها! وخرج تاركاً وراءه شابَّين أصابتهما الدهشة وقلباً في صدري يكادُ يتوقف...

لم أكن حينها قادراً على حيرة أكثر من ذلك، يكفي بكاؤكِ حين ذكرتُ قصة والدي في المسابقة الأدبية، ويكفي بكاؤكِ وهروبكِ حين اعتذرت لكِ عن ذلك، كان الوقت قد تأخر كثيراً حينها، استأذنت رامي وغادرت، أذكر أني قطعت المسافة من بيتهم لبيتنا سيراً على الأقدام، أشعر أني أحمل شيئاً ثقيلا يُثقِلُ عليَّ رأسي، أترنح به يميناً ويساراً حتى كدتُ أسقط على الأرض، كانت تسير معي الكثير من الأسئلة المتداخلة التي لا أستطيع ترتيبها أو الوصول من خلالها لنقطة بداية أو نهاية، الأمر كان أشبه بأحجية، لماذا بكت مريم حين ذكرتُ قصة والدي؟ ما هي قصة والدها؟

لماذا طلب مني عمي أبو رامي أن أتركها لمجرد سماع الاسم، هل هناك علاقة بين قصة والدي وقصة مريم؟

وصلتُ إلى البيت دون أن أشعرَ بالمسافة أو بشيء حولي، وضعتُ رأسي على الوسادة ورحتُ في نومٍ عميق هرباً من هذه المعركة الفكرية الدائرة في رأسي.

كان الصباحُ التالي كئيباً، خالياً من أي ابتسامة، ما زال رأسي ثقيلاً، والحيرةُ تُسيّرني دون وعي، قررتُ أن أسألكِ عن قصتكِ، حملتُ بشوقي وأسئلتي وذهبتُ للجامعة، بحثتُ عنكِ في كلِ مكانٍ فلم أجدكِ، تملكني التعب والخيبة، ولم يتبقْ أمامي حلٌّ سوى عمي أبا رامي، كنت أعلمُ أنه يفتح عيادته الخاصة عصراً، كان الوقتُ يسبق ذلك بقليل، لم أستطع الانتظار، ذهبتُ لبيته، ووقفتُ ساعتين تقريباً أمام الباب أنتظر قدومه، وحين جاء ورآني قرأت في عينيه أنه عرف لماذا أنا هنا، دخلت معه في العيادة وقبل أن أتحدث قال لي:

- تريد أن تعرف لماذا أخبرتك بالأمس أن تنسى موضوع تلك الفتاة ؟

لم أجبه، لم أكن قادراً على الحديث، كانت الأسئلة تخنقني، لم يكن لدي أي ثقب للتنفس، اكتفيت بالنظر إليه وهو الطبيب البارع الذي يستطيع قراءة ما في الناس من وجع وألم، واصل حديثه قائلاً:

- في الانتفاضة الأولى كان عمري ٢٥ عاماً، وبدأنا بتشكيل مجموعات فدائية لمواجهة جنود الاحتلال الصهيوني التي كانت تحتل القطاع حينها، كنا نقوم برمي الحجارة والمولتوف على الجنود وطعن من نستطيع الوصول إليه، بالإضافة إلى إدارة القطاع وتسيير شئونه وحل مشاكله وحماية سكانه، وكان من أكثر المهام صعوبة علينا هي كشف العملاء وتصفيتهم، خاصة أن

الاحتلال الصهيوني يعمل بقوة على حماية عملائه والحفاظ عليهم.

كان يتحدث إلي وأنا أنصت كأني أستمعُ لأمي وهي تروي لي قصة والدي الذي اغتيل في تلك الأعوام من بداية الانتفاضة، فقد كنت أعرف كل هذه التفاصيل وأحفظها جيداً، لكن لم أود أن أقطع سردَه لأني أعلم أن بعد ذلك سيأتي بالإجابة على سؤالي، تركته يكمل...

- استطاع الجيش الصهيوني أن يُجنِّدَ عدد من الفلسطينيين لصالحه؛ وذلك لأنه كان موجوداً بيننا وفي شوارعنا يعتقل من يشاركون في المواجهات ليل نهار، كانت مهمة العملاء هي نقل أخبار المجموعات الفدائية وخططهم وما الذي ينون فعله؛ لكن قليلاً من هؤلاء العملاء من كانت مهمتهم أكبر من ذلك بكثير وأخطر. . !

نظرتُ إليه بترقب شديد، وحينها نسيتُ ما جئتُ لأجله، لقد شعرتُ أن ما سيقوله متعلقٌ بحياتي كلها، بجرحي الذي لم يشفْ أبداً، بوالدي الشهيد، لم أستطع أن أنتظر، قلت له:

- أكمل يا عماه، وبعد
- كانت مهمة بعض هؤلاء العملاء هي اغتيال قيادات وعناصر المجموعات الفدائية، إما بقتلهم بالرصاص وهذا قلما كان يحدث لضعفهم عن المواجهة المباشرة، وإما بزرع المتفجرات في مكانٍ ما كالسيارة أو قطعة أرض يعرفون أن المطلوب سيمر من خلالها.

صمتَ قليلاً، وصمتُّ أيضاً.. .. .. أحسستُ بتعبٍ فكري شديد، فلطالما تهربتْ مني والدتي حين كنت أسألها عن قصة اغتيال والدي، وما زلتُ لا أعرف سوى تفاصيلَ قليلةٍ عن ذلك؛ فهي تخشى علي من معرفة الحكاية فأدخل نفسي بها من جديد، كانت تحكي لي عن

حياته ونضاله وكيف كان مقاتلاً وقائداً، وكلما سألتُ عن قتله قالت لا داعي لمعرفة التفاصيل، فالعميلُ قد قتله الفدائيون رفاق والدك بعد ذلك بفترة قصيرة، فينتهي الحديث، وجدتُ من والد صديقي رامي فرصةً لمعرفة تفاصيل أكثر، ليس بالضرورة عن والدي أنا بالذات، لكن عن طبيعة المرحلة التي عاشها وما الذي كان يجري فيها . . قطعت الصمت وسألته:

- وبعد يا عم، أكمل
- ماذا تريدني أن أكمل، هذا كل شيء
- لم أفهم، ما علاقة كل ما قلته بمريم ؟

صمت قليلاً، ثم قام من مكانه وقال:

- والد مريم كان أحد العملاء الذين تسببوا بقتل فلسطينيين يا بلال، والذين أعدمهم الفدائيون في الانتفاضة الأولى، لأجل ذلك قلتُ لك وأكررها، مكانتك كابن شهيد تُحتِّمُ عليكَ نسيان الأمر نهائياً، وإياك أن تخبر والدتك به؛ فالزوجة التي

يُقتلُ زوجُها بتلك الطريقة يكون جرحها غائرا، فلا تفتحه من جديد . . !

لا أذكرُ حينها بماذا شعرت، لا أدري ماذا فعلت، لستُ أعرفُ كيف استطعت أن أقف على أقدامي وأسير، كل ما أذكرهُ أني فقدتُ المقدرة على أن أفعل أي شيء، وصرتُ أسيرُ بين الناسِ ككتلة من اللاشعور، لا أرى أحداً سوى وطناً يوصد أبوابه كلها في وجه قلبي، أسيرُ ولا أدري أين المسير، أعودُ إلى طفولتي وأتمنى لو أني لم أكبر أبداً؛ على الرغم من قسوتها إلا أنها أرحم بكثيرٍ من أن أرى حُلمي مشنوقاً أمامي على مقصلة الوطنْ.

كان الأمرُ أكبر من حُبي، أكبر من تحملي، أكبر من كل توقعاتي، أكبر من أن أضعهُ أمام تفكيري البسيط، كانت الحكاية شائكة، مليئةً بالمستحيل الذي لطالما سخرتُ منه، لا تلوميني، ولا تتهميني

بالضعف، لم أقل لكِ يوماً بأني قوي، الحقيقة هو أني كنت سأكون كذلك بكِ . . !

لماذا أنتِ بالذات، يختاركِ هذا القلب من بين كل البشر؟

لماذا حين جئتُ بعد تعب الحياة كله لأرتاح، جاء قدري أن أحبك أنتِ معلناً عن بداية حياة تعب جديدة أشد قسوة وألماً؟

تمنيتُ كثيراً لو أننا بقينا في البداية، وأنني لم أمضي نحو النهاية المعلقة بيني وبينكِ وبين المجتمع وبين والدي الشهيد وبين والدكِ العميل وبين أمي وبين أمك وبين وطنٍ لا يغفرُ لمن يرتكب بحقه جرماً أو ذنباً . . !

تمنيتُ لو أنني بقيتُ ذلك الغريبَ الذي يأتي ليسمعكِ، وبقيتِ أنتِ القصيدة،

تمنيتُ لو أننا التقينا في وطنٍ غير هذا الوطن، وفي زمنٍ غير هذا الزمن، وعلى ضفاف شعرٍ غير هذا الشعر . .!

كان المساءُ يومها مختلفاً تماماً عن كل المساءات التي عشتها وسأعيشها، ومهما امتلكت من حرفٍ وكلمةٍ

لن أستطيع أن أكتبَ جملةً واحدة تكفي لوصف كل المشاعر والأفكار التي كانت تجتاح عقلي وقلبي وفكري وبالي، فأنا أحبكِ، وعرفتُ مقدار هذا الحب بعدما شعرتُ بمقدار الحزن الذي ملأ قلبي حين معرفة الحقيقة، كان الحزنُ حينها قوياً على غير العادة، لم أستطع أمامه فعلَ شيء سوى الاستسلام دون أي مقاومة، لكن لا أدري،

أكان حزناً لأن من أحببتها ابنةُ أحد العملاء الذين قتلهم الوطن عقاباً على خيانتهم؟

أم كان حزناً لأني لن أستطيع أن أحظى بكِ كوني ابن شهيدٍ وأنتِ ابنة عميل؟

أم أنه حزن على والدتي التي انتظرت عشرين سنة من عمرها لتكحل عينيها بي فجئتها بحبِ فتاة والدها يُذكِّرُها بالحرمان من زوجها،

لا أدري يا مريم . . لا أدري،

لكن ما أنا واثقٌ منه حينها أن الحزن الأكبر كان علينا معاً، فبعد أن عشتُ أنا وأنتِ عمرَنا ونحن أيتامٌ من

الأب ومن الوطن، كان علينا أيضاً أن نعيش أيتاماً من الحُب . . !

هذا الوطنُ بارعٌ جداً في وأدِ الأحلامِ يا مريم !
هو لا يكتفي بقتلِها فقط؛
بل في اجتثاثها كي لا تنمو مرةً أخرى . . !
أتعلمين بماذا حلمتُ ذات مرةٍ حينما كنتُ على قيدِ الموت .
. ! ؟
حلمتُ أن أسيرَ بقربكِ مرةً ، يجمعنُا طريق لا نهايةَ لهُ . . !
ومنذُ ذاكَ الوقت وأنا أنتظرُ؛ ليس لقاءكِ فهو غاية كبرى . .
!
بل أن أجد ذاك الطريقَ الذي يحملكِ إليَ ويحملني إليكِ
ويحملُنا إليه

هذا الوطن قاسٍ جداً يا حبيبتي ،
قاسٍ لدرجة أن ضريبةَ الحُلم بك . .
هي فقدكِ . . !

وأحلامُنا متعبةٌ جداً . .
تسيرُ عرجاءَ نحوَ السماءْ . .
لا تكادُ تنطقُ حتى يخنقُها الصمتْ . .
لا تكادُ تُغنِّي إلا ويسرقَ صوتَها عابرٌ فيملكُها ،

لا تكادُ تعزفُ إلا ويكسرُ كمانَها حُلمٌ آخرَ، لهُ نفس الحقِّ في أن يكونَ حُلما . .

البقاءُ في الأحلامِ للأقوى . .
وكان عليَّ أن أختارَ حُلماً يكون قاسياً . .
يكونُ قاتلاً . . ليبقى على قيد الحياة.
فالفضاءُ ضيقٌ جداً،
والطريقُ للسماء مزدحمةٌ. .
ولابد أن يكون كذلكَ كي يصل . . !

هذا الحُلم متعبٌ جداً يا حبيبتي
وأنا متعبٌ
والكتابة موجعةٌ جداً . . موجعةٌ جداً . . !

❖

❖

"كان عليَّ أن أرحلَ دون الإجابة عن كل هذه الأسئلة، كان علي أن أتركَكِ قويةً حين أضعفني المرض، كان علي أن أحاولَ البحثَ عن نبضٍ أخرَ علَّه يمنحني فرصة لأكمل ثورتي من جديد، كان علي أن أبحثَ عن وطنٍ يُشبهنا، عن سنواتِنا المسروقة، عن حقنا المسلوب، عن أمنيتنا اليتيمة الضائعة، كان علي أن أهربَ من لحظةٍ لا أريدُ فيها أن أقولَ لكِ أن هذا القلب الذي يُخرج حباً قوياً جداً، هو في الحقيقة ضعيف جداً، كان علي أن أفعل كل هذا كي لا أراكِ، وأن لا أراكِ أهونَ عليَّ بكثيرٍ من أن أراكِ للمرة الأخيرة."

ما لم أقلهُ لك ،، !

الليلةُ الثالثة.. !

اشتقتُ لكِ كثيراً، اشتقتُ إلى أن أراكِ تتمايلين أمامي بين السطور، تسيرين بدلالٍ فوق كل كلمةٍ أكتبُها، وكلما أنتهي من سطرٍ تقفزين قبلي للسطر الذي يليه، اشتقتُ لأن أتحدث إليكِ، نعم فأقصى درجات الشوق، هي أن نشتاقَ لأشياءَ كانت ستكون في حياتِنا، وحين شاء اللُه أن لا تكون، أبقيناها في أدراج ذاكرتنا، حافظْنا عليها كأنها حقيقة، بالصورةِ التي تليقُ بنا، نعود إليها متى شاءت ومتى شئنا.

كان يوماً مزدحماً جداً أمامي، لا أكادُ أهربُ من أمرٍ فيه إلا ويلاحقُني أمرٌ أخر، ولعلكِ تعتقدين أنَّ أهمَّ ما كان فيه هو الفحوصات النهائية التي كُنت سأجريها، في الحقيقة إنَّ هذا الأمر كان آخرَ الأشياء أهميةً بالنسبة لي، لأن أولها كان كيف سأسُرِّعُ ساعاتِ ودقائقَ هذا النهار كي يأتي الليل وألتقي بكِ على هذه الورقة، أكتبُ لكِ وتستمعين إلي، أغني لكِ لتنامي لو ليلةً واحدةً على وسادةٍ أخرى غير التي نسجها لنا الوطن.

لقد أهدتني "سيلينا" صباحاً مختلفاً عن الصباحات التي عشتُها هُنا، سرنا معاً في شوارعَ ميونخ، ذات البيوت الهادئة كوجوه أصحابها، يخالُ إليكَ وأنت تنظرُ لهدوء المشهد هُنا كأن هناك لغة تخاطبٍ أُخرى دون الكلمات يستخدمونها، حتى أنني صدقتُ ذلك فقضيتُ أول ساعات النهار دون أن أتحدث بكلمة، كُنتُ أنظر في كل مكان، أراقبُ كل الوجوه، أجلسُ بقلبي المُتعبِ على كل المقاعد الباردة الفارغة، كانت حباتُ الثلج

تتساقطُ حولي، حتى لا تكادُ ترى زاويةً لا يغطيها البياض، كان المشهدُ يفوق التصور، الشيءُ الوحيدُ الذي جعلني لا أعتقدُ أنني في الجنة لجماله هو أنكِ لستِ معي.

بعد أن مرتْ ساعاتٌ وأنا أسيرُ وأسيرُ وأسير، وسيلينا لا تفعلُ شيئاً سوى أنها تسيرُ بجانبي وتراقبُني بصمت، تحترم رغبة رجلٍ يعيشُ أخر ساعاته في هذه الحياة، قالت بعدما تأكدت أني بتُّ بعيداً جداً عنها بفكري وقلبي:

- ماذا يتمنى رجلٌ ربما تكون هذه الساعات أخر عمره؟

أعادتني في لحظةٍ إلى الكرسيِ الذي جلسنا عليه، شعرتُ بالبرد يقرصُني بعدما كُنت قد نسيتُ أصلاً أن الثلج يتساقط فوق رأسي، ماذا تتمنى يا بلال؟، لا أدري بماذا شعرت؟ فمنذ أن أصابني هذا المرض اللعين، بت أخافُ أن أتمنى شيئاً، ربما لأن في حياتنا هذه، الأيتامُ

ليسوا المحرومين من آبائهم فقط، بل أيضاً من أحلامهم وأمنياتهم، نظرتُ إليها بابتسامةٍ صغيرةٍ وقلتُ لها:

- أتمنى أن أموت في القدس.
- القدس، يا لغرابتك، رجلٌ في مقتبل العُمر بينه وبين الموت ساعات، بدل أن يتمنى أن يُشفى من مرضهِ، يتمنى أن يموتَ في القدس؟

قمتُ من مكاني، وقلتُ لها:

- أنتِ يا سيلينا .. منذ متى وأنتِ هُنا ؟
- منذُ ١٤ سنة
- وهل تشتاقين لعائلتكِ؟، لوطنكِ؟ لبيتكِ؟
- ليس هُناك من لا يشتاق، لكن ليس لدرجة أن أقدم هذه الأشياء على حياتي، عائلتي تتبدل وتتغير كل فترة وأخرى، ووطني هو المكان الذي أجدُ فيه قوت يومي، وبيتي أي بيتٍ أحققُ فيه رغباتي بغض النظر عن مكانه أو موقعه، أنا يا

سيدي لا أنتمي في هذه الحياة لشيءٍ سواي، سواي فقط.

نظرتُ إليها قليلاً وأنا أبتسم، ثم سرتُ باتجاه شارعٍ آخر كان يمد يديه إليّ كمن يحتاج لعناقٍ ليطفئ برد جسدهِ، فقامت من مكانها ولحقت بي بصمتٍ ، قلتُ لها:

- إن عُمري الآن خمسٌ وعشرون سنة، وبين المكانِ الذي أعيش فيه والقدس مثلهُما كيلومترات، حينُ وُلدتُ، أولُ أغنيةٍ غنيتُها كانت "للقدس"، وحينُ كبرتُ أول أمنيةٍ تمنيتُها هي رؤية "القدس"، وحينُ مرضتُ وسافرتُ أول ما كان يطعنُ قلبي هو أني أسافرُ لمكانٍ بعيدٍ جداً جداً، لأراه وأسكنُ فيه في حينٍ أني لا أستطيع أن أُلقي التحيةَ لو من خلفِ الأسوار على القدسْ.
- ولماذا لا تستطيع زيارتها أو العيش فيها؟

- يا للغرابة، أهديتموها لغير أهلها وأنتم ليس لكم حقٌ بها، ولا تعلمين أنها محتلة؟
- لا أرجوك، أنا ليس لي علاقة بالسياسة أو بما يدور في عالمكم.

اتكأتْ على كرسيٍّ خشبيٍ من تعب السير وقالت بسخرية:

- إن كُنت لا أعلم عن أهلي ووطني شيئا، أتريدني أن أعلمَ عن بلادكم البعيدة شيء، دعنا نجلسُ قليلاً وأخبرني، لماذا كل هذا الحُب والتعلق بمدينة لم ترها ولم تعش بها؟
- أترين هذا الثلج الذي يتساقط على هذه الأرصفةِ فيملؤها بالبرد، وعلى الرُغم من ارتعاشها؛ إلا أنها تبتسمُ له وتشكرهُ؟ أترين إن سارَ طفلٌ من أمامنا الآن وهو يرتعش من البرد فقمتِ واحتضنتهِ لتهديهُ حُباً ودفئاً؟، لماذا ؟

إنه الحُب يا سيدتي، الحُب الذي لا يستأذن أحداً ولا ينتظرُ أحداً، الحبُ الذي لا تنظمهُ قوانينٌ ولا تمنعه أنظمة، الحُب الذي لا تكونُ له مقدماتٌ ولا أسباب، الحُب الذي فُطرنا عليه بدافع انسانيتنا، وهُناك في تلك البقعة الصغيرة التي قطّعتها حكومةٌ من حكوماتكم وأهدتها لأُناس غُرباءَ لا يشبهون شيئاً فيها، الحُب يسبقُ الإنسانية هذه، يسبقُها بكثيرٍ جداً، لدرجةِ أنكِ لو سألتِ أي طفلٍ في أقصى الجنوب أو الشمال بماذا تحلم؟ سيقولُ لكِ أن أرى القدس، على الرغم من أنه لا يعرفُها، لكننا نحن الفلسطينيون نُولد وفينا حبها، نكبرُ وفينا حلمُها، إن هذه أغربُ قصةِ حُبٍ من الممكن أن تسمعيها يا سيلنا.

نظرتْ إليَّ نظرة طويلة، هي لا تريدُ أن تتوقفَ عن الصمت، وأنا لا أريدُ أن أتوقفَ عن الكلام، أريدُ أن

أسير في كل شارعٍ من شوارعها، أن أقبِّل كل حجرٍ من أرصفتها، أن أسلم على كل رجلٍ وامرأة فيها، أن أحتضن كل طفلٍ وطفلةٍ وأهديهما خارطة مطرزة من تلك التي تطرزها بنور عينيها كل ليلة أمي، أذكر صديقاً قال مرةً: " لأني لا أستطيعُ أن أزور القدس، قلتُ لإمرأة هناك كوني عينيَّ" وأنا اليوم، من منفى القلبِ والوطنِ والحُب، أقول لكل حجر فيها: كُن كفيَّ واضرب بهما ما شئت حتى ينهمرُ منهما المطر، ولكل حمامةٍ بيضاءٍ تحطُ جناحيها على القبة الذهبية شوقا:لا تعباً: كوني روحي لو لحظة؛ علها تكون اللحظة الأخيرة فأموت معانقاً طُهْرَ هذه الأرض وقداستها.

قامت سيلينا من مكانها، وطلبت مني أن نعود للمستشفى فقد اقترب موعد الفحوصات، ابتسمتُ وعُدنا نسيرُ في نفس الشوارع التي سرنا بها للمرة الأخيرة، إحساسٌ غريبٌ مغلَّفٌ بالألم حين تعلمُ أن هذا الشيء الذي تحبهُ وتقوم به، ستفعله للمرة الأخيرة، وأنا

هُنا أمارس دور البطل في مسرحيةٍ " المرة الأخيرة "، أسيرُ في هذه الشوارعِ للمرةِ الأخيرة، وأكتبُ لكِ على هذه الأوراق للمرة الأخيرة، وأحلقُ في سمائكِ عالياً بكفيكِ كطفلٍ تلقينه إلى أعلى فيبتسمُ لأنه سيعود إليكِ، للمرة الأخيرة، أشتاقُ إليكِ في هذه الدنيا للمرة الأخيرة، أتعذبُ بكِ وبالبُعد عنكِ للمرة الأخيرة .. آهٍ يا مريم، آهٍ يا أيتها المرأة الأولى والأخيرة.

مررتُ على المقاعد التي جلستُ عليها، وتذكرتُ وأنا أسيرُ أمامها فدوى طوقان حين قالت: " في الغربةِ، لستَ يا صديقي أكثر من مقعدٍ في حديقةٍ عامة سيجلسون فوقك ويستريحون وينتشون ويشكرونك ثم يمضون" ... وهُنا في ظل هذه الشوارع الكثيرة جداً، والمقاعد الفارغة، والأشواقِ التي لا يمكن لها أن تنتهي، واللقاءات التي بات طرفُها الأول والأخر أنا، وحدي أنتِ ووحدُكِ أنا ووحدُنا في ظلٍ غيابٍ لا يغيبْ.

كان قد انقضى أكثرُ من نصف النهار، وصلنا إلى المستشفى قبل موعد الفحوصاتِ بقليل، ابتسمتْ سيلينا وقالت: أنا قد أنتهت إجازتي لأجلك، وحان أوان عملي، أراك بعد قليلٍ، لا تتأخر، وقبل أن تغادر أقبل عليها أحد العاملين في المستشفى وقال لها بعض الكلمات باللغة الألمانية فتغيرت ملامحُ وجهها وشعرتُ بالخوف قد تملكها، سألتُها عما جرى، فقالت وكأنها في صدمة: الرجل الأمريكي، صمتُّ لأني عرفتُ الإجابة، فهذا المكان هو بمثابة المحطة الأخيرة لكل واحدٍ منا، قطعت صمتي وقالت نعم لقد مات، لكن ليس موتاً طبيعياً، نظرتُ إليها وقد اتسعت حدقات عيني، قالت: لقد انتحر، وجدوه في غرفتهِ مشنوقاً قبل عمليته بساعتين فقط.

سرتُ معها إلى داخل المستشفى حيث إجراء الفحوصات النهائية، سرتُ وذلك الرجلِ العجوزِ لا يفارق خيالي، كُنت أشبَهَ بجثةٍ لا تشعرُ ولا تحس، أجروا عليَّ كل

الفحوصات المطلوبة دون أن أهمسَ بكلمة واحدة، أو أسألَهم عن شيء، ثم خرجتُ بدون وعيٍ إلى حيث جلستُ أنا وهو صباح الأمس، كان الحوار بيننا يتمايلُ أمامي كمشهدٍ من فيلمٍ لا أنساه، أعدتُ قراءة كل كلمةٍ دارت بيننا، كان المقعدُ حزيناً جداً، يا لكمية الحُزنِ التي نتركها خلفنا في الأماكن وعلى والمقاعد وفي القلوب، يا لقضية الموت التي تطالُ كلَ شيءٍ نُحبه ويُحبنا، تذكرتُ حين سألته إن كان يريد أن يموت كي يلتقي بزوجته التي سبقته فأجابني " ليس مهماً، فلستُ أؤمن أن ثمة حياة أخرى، كل ما في الأمر هو أنني أريدُ أن أجرب ما جربته هي لأؤكد على صدقها أنها في مكان لا يمكنها من أن تفي بوعدها لي"

أتُراني أشبهُ هذا العجوز لهذا الحد، لدرجة أن أصابَ بقلبي كي أجد مبرراً لعدم مقدرتي على الايفاء بوعد الحُب لكِ.

جاءت سيلينا وجلست على ذاتِ المقعدِ بجانبي، وأخبرَتني بنتيجة الفحوصات متأسفةً، أنها كانت تتمنى لو أن الفحوصات كانت إيجابيةً وأن العلاجَ سيقوم بالمهمة؛ لكنها على العكس من ذلك ولابد من عمليةٍ أخيرة نسبةُ نجاحِها لا يتعدى الواحدَ في المئة، وقد حددوا موعدها بعد غدٍ، نظرتُ إليها ثم عُدت لشرودي الذهني مرة أخرى هُناك مع ذاك الرجل المنتحر، قطعتْ صمتي وقالت:

- أتشعرُ بالخوف؟
- لا بل بالاستغراب
- من ماذا؟
- منكم
- منّا ... لماذا ؟
- لأنكم تحبون الحياة حباً شديداً وتتعلقون بها كثيراً، وحين تضعفون تتخلون عنها فوراً، لماذا التعلق بها من البداية إذاً؟

- لأننا نُحبها حين نكون أقوياءَ فقط، حين نكون قادرين على الاستمتاع بها، دون ذلك فلا حاجة لنا بها.
- وما هو معيار القوة والضعفِ لديكم ؟
- حين يُصيبُ أحدَنا مرضٌ لا يمكنه مقاومته نصبح ضعافاً، وحين نصابُ باليأس من هذه الحياة نصبح ضعافاً، وحين تتعب أرواحنا نصبح ضعافاً.
- دعيني أخالفكِ الرأي هذه المرة يا سيلينا
- من الطبيعي أن تخالفَني الرأي، فهذا الأمرُ متعلق بدين كل واحدٍ مِنّا
- ليس صحيحاً؛ إن كان معياركم هو الجسد والرُوح، فهل تختلفُ أجسادكم وأرواحكم عنّا؟
- ماذا تريد أن تقول؟
- أريد أن أقول أن هناك معياراً أخرَ غير معياركم للقوة والضعف في هذه الحياة، إن هذا المعيار هو ذاك النور الإلهي الذي يخترق حدودَ السماء والأرض ليسكن قلوبنا وأرواحنا، هو ذاك الإيمان

الذي يجعلُ شاباً في مقتبل عمره فاقداً له، مجرد جسدٍ هزيلٍ يائسٍ ضعيف، ويجعل عجوزاً تجاوز السبعين أو الثمانين يمتلكه وهو لا يكاد يقوى على الحركة، كطفلٍ يُشع وجهُه نوراً وحياة.
إن القضية تتعدى مرحلة تفكيرنا يا سيلينا، تتعداها بكثير، لن تعرفيها إلا إذا شعرتي بها.

- أتريدُ أن تقول أن دينكم يمنح الحياة للبشر أكثر من ديننا، دعني أنا من أخالفك الرأي هُنا، وإلا فلماذا يذهب شبابكم ورجالكم إلى الموت بأنفسهم، ألم تقل لي أنت أن لك صديقاً ذهب بنفسه ليقاتل وعاد قتيلاً.

أعادتني بسؤالها إلى الفكرة التي كانت تلاحقني دوماً، السؤال الذي يسألُني دوماً وهو فقط من يملك الإجابة؛ لكنه يريد مني أن أقولها، فكرةَ الرحيل لا فكرة الموت، فأنت تعلمين أكثر مني أن هؤلاء لا يموتون، هم ينتقلون من العيش في مرحلةٍ من مراحل

العُمر إلى مرحلة أرقى منها بكثير، هُم الأحياء، الأحياء دوماً يا مريم. قلت لها :

- حين يموت الإنسان يا سيلينا، ماذا يحدث بجسده؟
- يتحلل ويتلاشى
- وروحه؟

أبعدت عينيها عني، وباتت تبحث حولها عن إجابة فلم تجد، عادت ببصرها لتسألني ذات السؤال دون أن تنطق بكلمة قلتُ لها:

- إن هذه الحياة التي نعيشُها، منذ أن نولد إلى أن نموت، ما هي إلا حياةٌ عابرة، سنمر من خلالها لحياة أخرى دائمة، هُناك حيث تتجمع أرواحنُا عند خالقها، إن اللّهَ حين خلقَ الخيرَ والشر، والنار والجنة، خلقها لأجل اختبارٍ سنعيشهُ في هذه الدنيا، فهذا الأمريكي الذي لا يؤمن بكل هذا، لو كان يعلم أن ثمةَ حياةً أخرى، لما قتل نفسه،

على الأقل، ترك شأن حياته لمن خلقها ولمن سيعود إليه ليسأله ماذا فعلتَ بالحياة التي منحتُك إياها؟

معكِ حق، أن في ديننا يذهب الشباب والرجال إلى الموت؛ لكنه موتاً غير الموت الذي تعتقدينه، إنهم يموتون موت هذه الدُنيا وليس الموت الأزلي الذي لا حياة بعده، فأجسادهم تُدفن؛ لكن أرواحهم تنطلق لتحلقَ فوقنا هُناك تصطف كلها على بوابة السماء، تنتظر إذنَ الله لها بالدخول وإلقاء السلام، السلامِ على السلام، السلامِ على الخالق الذي سنعودُ إليه.

- قلتُ لك أول مرة أن دينكم يُخيفُني، أليس هُناك شيءٌ يجعلكم تدخلون الجنة إلا أن تذهبوا بأنفسكم للموت ؟
- بلى، هناك الحياة
- وكيف ذلك؟

- كثيرون أولئك الذي يذهبون إلى الله في مماتهم؛ لكن قليلون أولئك الذين يستطيعون أن يذهبوا إليه في حياتهم.

نحنُ نحب الحياةَ كثيراً، نحبها إلى حد لا يمكن لمثلكم أن يتصوره، نُحبها لدرجة أننا مستعدون للموت في سبيل منحها لمن نحب، نُحبها لدرجة أننا متمسكون بها كما لو أننا لن نعيش حياةً بعدها؛ لكن حينَ يأتي من يحتلُّ أرضَنا، ويسرقُ وطننا، ويخطِفُ الحياة من عيوننا، نُحب الحياة أكثر، لأجل ذلك نقدمها في سبيل محاربته، لأن ما سرقه منا يستحق أن نموت لأجله.

- غريبون أنتم، غريبون جداً، لدرجة أنكم تنثرون الورود حين يموت أحدكم؟
- يا سيدتي، في وطننا تتباهى الأمهاتُ بأبنائهن الذين ذهبوا لأجل الوطن، فهذه تقول أنا قدمتُ واحداً، فتقول لها أخرى أنا اثنين، فتقول لها ثالثةُ لا أنتِ ولا أنتِ، أنا ثلاثة، فتقفُ امرأةٌ وجههاُ

كالبدرِ وتقول، أنا قدمتُ أربعة وعندي غيرهم ثلاثة، ليس منهم ابني من لم يلحق بهم.

كانت الإجابةُ الأخيرة كفيلة بإرخاء ستار الصمت طويلاً على كِلَينا، هذه الغريبةُ عني ديناً وفكراً ووطناً عاشت أربعين سنة لا تعرفُ عن الحياة والموت شيئا، وجئتُ أنا المنفيُّ من حياتي لأخبرَها وأنا على بُعد ليلتين فقط من الموت ماذا تعني الحياة. ؟

....*

..

*

أتعلمين يا مريم؟ لم يكن الموتُ يوماً قضيتي؛ بل قضيتي كانت كيف سنموت، وعلى ماذا سنموت، وهل حقاً حين مِتنا كُنا نستحق هذا الشرفَ الكبير بأن نتخطى مرحلةً من المراحل التي تفصُلنا عن الوصول إلى اللّه، حتى حين علمتُ بأني مصابٌ بهذا المرض، المرض الذي يختزل السنينَ ليجعلَها أياماً ولحظاتٍ، لم أفكرْ لحظةً في الخوف منه، الذين يخافون من لقاءِ أحدٍ هم أولئك الغيرُ واثقين بحبه لهم وبحبهم له؛ ذلك أن الحُبَّ والخوفَ لا يجتمعان في قلبٍ واحد، وأنا كُنت أحبُّ اللّه كثيراً، وأعلمُ أنه كان يحبُّني أكثرَ؛ لأنه لو لم يكن كذلك لما اختارني لأعبدَه. يا صديقتي! اللّهُ يرحمنا لأنه يحبُنا! أأخافُ ممن يُحبني وقد وهبَني الحياة؟ حاشاني أن أخافَ يا مريم، حاشاني أن أخاف! وحاشاه يعذب قلبيَ الذي لا يعرف سواه.. حاشاه حاشاه.

على الرغم من كل الأحداث التي جرت في يومي هذا؛ إلا أن الشيءَ الوحيدَ الذي أوقف عنده كل شيء هو انتحار الرجل الأمريكي، ليكونَ أخر حوارٍ يُجريه في حياته معي، ذاك الحوار الذي حاول من خلاله أن يثبتَ

نظريةَ الحُب والموت معاً، والعلاقةَ بينهما، ذلك الحوار الذي أراد من خلاله أن يخبرني أن أصدق وسيلة للتعبير عن الحُب هو أن تموتَ، هو وصل لهذه القناعة بعد حياة طويلةٍ جداً عاشها متنقلاً بين حياةٍ فارغة إلى حياة أكثر فراغٍ منها، أولئك الذين لا يؤمنون باللّه ولا بأن المحطة الأخيرة ستكون بين يديه، يستنفذون كل ما أوتوا من حُبٍ وحياةٍ لأجل اللحظة التي يعيشونها فقط، يقضون كل حياتهم وهم يبحثون عن سكينة روح لو للحظة واحدة فلا يجدونها، ونحنُ يكون المؤمنُ فينا مليئاً بكل همومِ الدُنيا، فيسجدُ سجدةً واحدة فيُسكنُ اللّه في قلبه قصوراً من الراحة، وطمأنينة امتدادها لا يُرى ولا ينتهي.

لقد حاول هذا العجوزُ أن يجعلني أنا الماثلَ أمام الموت، ضعيفاً مثله، لأتخذ من النهاية المُقدَّرة لي إجابة لكِ على كل الأسئلة التي تركتها معلقة خلفي على بوابة الوطن، لكنَّ قلبي الممتلىءَ بكِ كان يعلمُ وهو الذي يملك نبضاً من الممكن أن يتوقف في أي لحظة أن الإجابة الأصدق على سؤال الحُب هي الحياة، حتى

أولئك الذين يرحلون لأنهم وصلوا إلى مرحلة العشق الذي لا تكفيه هذه الدُنيا؛ هم لم يرحلوا للموت بل لحياةٍ تليقُ بهذا الحُب.

كلانا يؤمنُ بشيء، كلانا ينبضُ قلبهُ باسم أحدٍ في هذه الحياة، وكلانا سيواجه ذات النهاية وربما في ذات المكانٍ والزمان، لكنَّ الفرق الذي كان بيننا، هو أنه اتخذ من الموت إجابةً ليعبِّرَ فيها عن صدقه وحبه، وأنا اتخذتُ الموت لأقولَ لكِ، أنا إن رحلتُ عن هذه الدُنيا فإني أسألُ اللّه أن تكوني لي في الحياة المقبلة، هُناك هُناك، حيثُ لا بُكاءٌ ولا حزنٌ ولا فراقٌ، هُناك حيث سأعانقكِ حين ألقاكِ ألف سنة عناقاً واحداً، أقولُ لكِ من خلاله كلمة واحدة فقط: لولا أنني هُنا في أنسِ من لا أنس كأنسه، لكنتُ مِتُّ شوقاً إليكِ.

❖

❖

لقد شهِدَتْ تلك الفترة التي عشتُها بعد معرفتي بقصةِ والدك وقبل معرفتي بمرضي، مشاهداً لا يمكن لي أن أنساها، مشاهداً بطلُها القلب، وسيُدها الوطن، وضحيتها نحنُ، ودمعتُها أمي؛ لأجلَ ذلك كان لابدَّ أن تكونَ النهاية هكذا، بأن يسقطَ البطلُ قبل نهاية المشهد الأخير، ويعلنَ القلبُ توقفَه عن الاستمرار، خشيةً من أن يسقطَ طرفٌ آخر من هذه المعادلة.

لم تكن القضيةُ قضيةَ بلال فقط، ولا حتى بزوجة الشهيد أمه، ولا حتى بكِ، بل كانت قضيةَ مجتمعٍ بأكمله، قضيةَ تلك الثقافات التي لا يعرف معتنِقوها كيف بدأت، ولا كيف ستنتهي؛ مع أنهم يرون في كل يومٍ ذلك الكمَّ الهائلَ من الضحايا المترامين على أرصفةِ الظلم بسببها، يُولدون ويطبقونها دون أن يسألوا عن أساسها وصوابها، عن ظلمِها أو بطشِها، كان الصراعُ حولي كبيراً، وكلُّ سهمٍ يطلقهُ طرفٌ باتجاه الآخر يصيبُني، أصابني المرضُ في عقلي قبل أن يصيب قلبي، وشعرتُ بفوضى هادئة تسكنُني، وبتُّ أمتهنُ الصمتَ في كل شيء، أحاولُ من حينٍ إلى أخر أن أرتب تلك

المعمعةَ في رأسي، أفتشُ عن إجابةٍ لكثيرٍ من التساؤلاتِ فيه، لماذا؟ كيف؟ متى؟ هل؟ ، أسئلةٌ كثيرةً جداً ولا إجابة سوى الصمت، الصمتُ الذي إن علمَ هذا الوطنُ أنه يمثلُ إجابةً لي فهو سيعاقُبني عليه.

سألتُ نفسي كثيراً، إن كان والدُكِ هو الذي باعَ هذا الوطن، وكان ابنَه العاق، وأخذَ عقابَه ورحل؛ لماذا تُعاقَبينَ أنتِ؟! وإلى متى ستبقين تدفعين ضريبةَ ذنبٍ لم تُذنبيه؟ لماذا يحكم عليك أن تكوني في هذا الوطن منفيةً منه فيه؟ وأنتِ التي قدمتِ قرابين حُبكِ له مع كل كلمةٍ كُنتِ تصرخين بها؟

كُنتُ أعلمُ ذلك جيداً، وأؤمن به جداً؛ لكنَّ الذي كان يؤلمني هو تلك الهوةُ الكبرى بين "الوعي" و "السلوك"، بين أن أشعرَ وأن أقول؟ لم يكن ضعفي حينها خشيةً من المواجهةِ؛ بل الحقيقة هو أنني كلما كنتُ أستعيدُ قواي وأقررُ أن أفعلَ شيئاً، أتراجعُ أمام جرحِ أمي؟، لم يكن الأمر هيناً، فهذه الماثلةُ أمام العاصفةِ وحدها منذ أكثرِ من عشرين سنة، تحملُ جرحين لا جرحاً واحداً: جُرح أن زوجها قد تركها ورحل، وجُرح أن هُناك مَن هو من ذات

وطنه كان سبباً في ذلك؟ فما بالكِ حين يكونُ هذا الذي باع وطنَه وكان سبباً في جرحها هو والدُ الفتاة التي يريدُ ابنها أن يتزوجها؟

ماذا سأقولُ لها؟، لا أعتقدُ يا مريم أن اللغة تحتوي على كلماتٍ لمثل هذا الموقف، ولا أعتقدُ أنني أستطيعُ أن أحملَ لها بكفِّ قلبي جرحاً فوق جرحها، أنا الذي تمنحني الحياة كلَّ يومٍ لأكبرَ كي أداوي وجعها، أنا الذي عاشت حياتها كلَّها يوماً بيوم ولحظةً بلحظة وهي تنسج لي من نور عينيها أملاً في هذه الحياة.
لقدُ كُنتُ ممتلئاً بكِ، وفي ذات الوقتِ عاجزاً عن آتي إليكِ حاملاً شوقي لحُلمٍ صغير أعرفُ أنك تحلمين به في ذات الوقت، بتفاصيله الصغيرة الجميلة، وأعتقدُ أنه من رحمة اللّه على أمي وعليكِ وعليَّ أن أصاب بهذا المرض، ليكونَ الإجابةَ على السؤال الذي لن أستطيعَ أن أجيبَ عليه أبداً، ليكونَ الوجعُ لي بدل الوجع الذي سيُصيبُ أحدَكم إن استسلمتُ أو واجهتُ، ولم يكن هذا الأمر بعيداً، فلم يكن قد تبقى سوى شهرين على تخرجي

حين عرفتُ قصتكِ، وبعدها بقليلٍ عرفتُ بمرضي، وكأن هذا المرض جاء رحمة لي مما كُنتُ فيه.

حينَ عرفتُ كل هذا قررتُ أن أواجهَ الحياةَ بكل قوة، على الأقل حتى موعدَ التخرُّج، فلم أرد أن أخرج من هذه الحياة دون أن أقدم لأمي زهرةَ عمرها، وأمنحها لو مرة واحدة دمعَ فرحٍ وعناق لا دمع حزنٍ وفراق، واصلتُ الليل مع النهار، حتى جاءت تلك اللحظةِ التي انحنيتُ على قدمها أمام الجميع، وقبَّلتها وهمستُ في حضنها وهي تحتضنني كطفلٍ يحتاج لغفوةِ قلبٍ قليلاً: هذا غرسُ عينيكِ يا أمي، رفعتُ رأسي لأمسح دمعها، رأيتُك تجلسين آخر المدرَّجِ خلفَها، تلك اللحظة التي توقَّفَ عندها كلُ شيء، تلك اللحظةُ التي تمثّلُ مشهدَ الصراع بين الحُبِّ والوطن، في انحناءةٍ ونظرةٍ، أذكرُ حينما ابتسمتِ وغادرتِ، ظناً منكِ أن الدراسة التي كانت تحول بيني وبينك قد انتهت، ولم تكوني تعلمي أنني كُنتُ أتمنى لو أنني لم أنتهي منها؛ فوحدي يعرفُ ما سيكون، ووجعَ ما سيكون، ونهاية ما سيكون.

منذُ عرفتُكِ وأنا أقولُ بيني وبين نفسي، أن لكل إنسان مقدارٌ معينٌ من الحُزن في هذه الحياة، لأجل ذلك سأحزنُ كثيراً الآن، كي لا أحزنَ وأنتِ معي، ويبدو أنكِ لن تكوني معي، ولن تسيري في هذه الحياةِ المظلمةِ بدونكِ معي، ولن تقولي لي حين ينفضُّ كل شيءٍ من حولي: أحبُكَ، وأقولُ لكِ، يبدو يا مريمَ أن القضيةَ لا تكمنُ في أننا أحببنا فقط؛ بل أيضاً أننا تمنينا في وطنٍ هو بحد ذاته ما زال أمنية.

أقولُ دائماً بيني وبين نفسي، لماذا لا تُحبنا أوطاننا كما نُحبها؟ ثم أعودُ وأقول: وما هو الوطنُ إلا نحنْ، نحن الذين نشكله ونرسمه، نبنيه ونهدمهُ، نحن من يجعلهُ وطناً، ونحنُ من يجعلهُ منفى، ولا أدري إن كُنت أنا وأنتِ جزء من "نحنُ" السابقة، وهل يحقُ لهذا الوطنِ الساكنِ في ثنايا صدورنا أن يعاقبكِ على جريمة والدكِ، وأن يعاقبَني لأنني أحببتكِ ظناً منهُ أنني أواجهُه أو أعاندُه.

الحقيقةُ هي أن الوطنَ بريءٌ من كل ما تقترفه أيدينا، بريءٌ من أفكارِنا التي تقدمُ العيبَ على الحرام، وتخجلُ من الحقِ لأنه يعارض تقاليدها، بريءٌ من أولئك الذين يخافون من القوةَ ويتجبرون على الضعف، يحترمون السلطةَ ويحتقرون الفقرَ، بريءٌ من أصحاب الزجاج الأسود الذي يجعل بين قلوبهم وقلوب الأخرين حجاباً، بريٌ من الساسةِ الذين يخطبون فينا ليل نهارٍ عن الصبرِ وإن مُنع عنهم شيء لعنوا الوطنَ ومن في الوطنْ! بريءٌ من أولئك الذين يظلمون باسم الدينِ والدينُ لم يكنْ يوما ظالما! أولئك الذين يعاقبون الأخرين على ذنبٍ لم يقترفوه! أولئك الذين جعلوا الوطن ضريبةً، والأمنَ فيهِ عطيةً، والحياة في ظلهِ جريمةً، ولم يمنحونا حقاً فيه سوى الموتْ!

الموت الذي بات أغنيةً صباحيةً ومسائيةً لا تنتهي، تعزفُه أياديهم بأناملَ مزيفة، يحاولون بكل ما أوتوا من قُبحٍ أن يُجَمِّلوه، يكذبون علينا باسم الوطنِ كي نموتَ لأجله، ألا يوجدُ وطنٌ لا يحتاجُ منا موتاً ضريبةً كي ننتمي

إليه، لماذا أسموهُ وطناً إذاً إن كان كذلك؟ لماذا أسموه وطن؟

والحقيقة هي أنه لم يكن الوطنُ يوماً موت، لم يكن كذلك أبداً؛ حتى لو زيفوه وبدلوه وخانوه ولوّنوه وحزبوهُ، الوطنُ هو الوطن، ذلك الذي كُنتُ أشعرهُ في حضنِ أميِ حينَ كانت الوحدةُ تأكُلني، واليُتم يملؤُني، ذلك الذي كُنت أحياه وأنا أقفُ تحت المطر أستمعُ لكلماتِ اللّه وهو يناديني ويؤمنني، إنه أبلغُ من كل الكلماتِ وأوسعُ من كل الجغرافيا الممتدةِ على حدودِ قلوبنا، إنهُ ليسَ قاسيا كبردِ الرصيف، ولا ظالماً كتُجار السلطة، ولا شاعراً مزيفاً يكتبُ قصيدتهُ ممتلىءَ البطنِ يخطبُ بها أمام قرقرةِ البطونِ الفارغة، إنهُ باختصارٍ يشبُه صوتَ أمي الذي يأتي كأغنيةِ المساء كي يغفو الأطفال عليها، إنهُ أنتِ، وأنا، وكلُّ شيءٍ لم يطلقوا عليه اسم وطنْ.

وسأقولُ لكِ الحقيقة إذن، وسأعترفُ لكِ في موتي ما لم أستطع أن أبوحَ به في حياتي، نعم لم أكن أعلمُ حقيقة

والدكِ وما فعلَه بحق الوطنِ حينما أردتُكِ نصفاً أخر يكملني؛ لكنني أقسمُ لكِ بنبض هذا القلبِ الذي لا أملكُ سواه، أني كُنتُ سأحبُكِ أيضاً لو كُنتُ أعلم، كُنت سأتشبثُ بكِ تماماً كما يتشبثُ بنا هذا الفراق اللعين، كُنتُ سأصرخُ بكلِ حروفي أنكِ قدرٌ، تماماً ككل الحقائق التي تعصفُ بنا، قدرٌ جميلٌ متعبٌ لا ينتهي، كُنتُ سأمُسكَ بيدكِ أمامَ اللّه، وأسيرُ بكِ بين الخلائقِ رافعاً رأسي، أقولُ لهم نعم: أنا ابن الشهيدِ الذي عاقبَه الاحتلال بالقتل لأنه دافع عن الوطن، وهذه ابنة الرجلِ الذي عاقبه الوطنُ بالقتل لأنه خان الوطن، لن تحكمنا أفكاركم، ولن تفرقنا عاداتكم، وإن كان والدها عميلاً، فلقد تبرأت منه، ومن فعلتِه، وعاشت تُحب وطنها وتنتمي إليه أكثرَ من أي أحدٍ آخرَ منا، فلتصمتوا، ولترفعوا أيديَكم عنّا، ولتتركوا اللّه يحكم بيننا.

كُنتُ سأسيرُ بكِ إلى أمي، وأجثو على قدميها، أقبِّلهما، وأمسحُ وجنتيَّ بهما، وأسألُها بكل حضنٍ غفوتُ فيه، وبكلِ ألمٍ شعرتُ بهِ، وبكلِ يُتمٍ أثقلني،

أن تغفرَ لمن لا ذنبَ له، وأن لا تحكم عليكِ بالعيش يتيمةً من الوطنْ كما عشتِ يتيمة من الأبِ طوال حياتكِ.

لا أستطيعُ أن أحدد ماذا ستكون ردة فِعلها، كل ما كان يهمني أن لا أكون جلاداً آخر لكِ؛ فأنتِ لم تكوني مجردَ فتاةٍ بالنسبة إلي؛ بل كُنتِ قضية، مبدأ، إيماناً راسخا في داخلي يستحقُ أن أناضلَ لأجله وأثورَ، ثورةً لابد أن تبدأ، ولا تنتهي إلا بإسقاط كل مبادىءِ الظلمِ المجتمعي على أبناء أولئك الذين خانوا الوطن، حتى لو كان ثمن هذه الثورةِ حينها، هو حياتي.

كُنتُ أؤمن جيداً أن هؤلاء الذين يمسكون بعصا الأفكار المتوارثة، والعادات اللقيطة، والقيمِ العصبية والقبلية، ليست قضيتهم الوطن؛ بل قضيتهم أنفسُهم، إنهم يحاولون أن يبحثوا عن أي مبدأ لينادوا به كي يكون لهم صوتٌ، بسبب أنهم فارغو المبادىء الحقيقية والصحيحة، وأنا أثقُ تماماً أن هؤلاء أنفسهم سيحملون هذه العصا في وجهِ الفقير والضعيف ومن لا سند له في مجتمعاتهم.

إن الإنسان حين ينصر قضيةً أو يحمل لواءً، فإنه يؤمنُ بهِ مجرداً من الانتماءات والعصبيات والقبليات، بحيث يكون ثابتاً راسخاً مطبقاً على الجميع بدون استثناء، لا محاباة ولا مقاربة فيه، فهل هذا الذي يعاقبنُا على ذنبٍ لم نقترفْه، يرضى بأن يُعاقَبَ أبناؤهُ على ذنبٍ لم يقترفوه فرضاً ، ، الإجابةُ قطعاً لا، صدقيني لا.

وأنتِ بريئةٌ، كزهرةِ عبادِ الشمس التي ألقى بذرتَها طيرٌ فروتها سحابةٌ ونبتت بين الشوك، إما أن تصبحي شوكاً مثلَه، أو تموتي، ليس من حقكِ أن تكوني زهرةً أبداً في وطنِ الأشواك؛ لأنكِ حسب اعتقادهم تشويهنه، تلوثينه، نعم يا مريم، فنفوس القبُح دائماً تأبى الجمال، بل وتعاديه، وكما هي كل الحقائق، ليس هُناكَ شيءٌ مطلق، وحين أقول هذا للوطن، فلستُ أعني كل الوطن، لستُ أعني ناسَه الطيبين بالفطرةِ، ولا الذين اعتنقوا الأفكار بالوراثة، ولا الذين وُلدوا وكبروا وورثوا منهاج حياتهم الذي وضعه لهم أخرون؛ إنني أعني هُنا أولئكَ الذين يطبقون هذه العقائدَ بالقوة على الأجيال التي تليهم، دون أي فرصةٍ لحرية التفكير فيها، لأولئك الذين بسببهم باتت فكرةٌ خاطئة عقيدة، ندافعُ عنها

حتى الموت، نقاتل من أجلها القريبُ والبعيد، نفترق وننقسم، ولو فكّر واحدٌ فينا للحظة ما وجد لها أصلٌ ولا فصلٌ ولا أساس... فكم من قلوبٍ تحطمت، وكم من بيوتٍ تدمرت، وكم من علاقات تقطعت، وكم من نسيج مجتمعي بات أوهنَ من بيت العنكبوت، فقط بسبب قانون العيب، العيب من أن تتزوجَ بفتاةٍ من خارج قبيلتك، والعيبُ من أن يناسب أبوكَ الغني رجلاً فقيراً، والعيبُ من أن تفكر بالارتباط بابنة قد خانَ أبوها الوطن، والعيبُ من أن تكون عامل نظافة، والعيبُ من أن يزوج رجلٌ ابنته لشابٍ ذو خُلقٍ بدون مالٍ فقط بحفظ القرآن مهراً مثلاً، والعيبُ من عديدٍ وكثيرٍ من أشياءٍ لا نعلمُ لما هي عيبٌ أصلاً، وحين نسألُ يقولون لنا بصوتٍ عالٍ، هذه تقاليدُ مجتمعنا، يا أيها الصارخون بتقاليدٍ العيبِ: أين أنتم من تقاليد اللّه؟

إنني أعلمُ جيداً أن كل الكلمات التي أقولها لكِ لا يمكنُها أن تُشفي جرحكِ، ولستُ أمارسُ هذه الكتابة غير آبهٍ بكل ألمها لأنني أريدُ ذلك، على العكس تماماً فإنني أتمنى لو أنني لا أستطيع الكتابة لكِ أبداً، كي

لا أشعرَ بكل هذا الألم، لكنني أرتكبُ بحقِ الحرف هذه الجريمةَ لأجلِ نفسي، لأجل أن أتركَ هذه الحقيقة مني، عل عابرٍ يمرُّ عليها فُيصيبَه ألمٌ صغيرُ منها ليتوقف عن ممارسة أمرٍ سيكون فيه ألمٌ أكبر، إنني أكتبُ لكِ يا مريم، وكلُّ كلمةٍ أكتُبها ربما تكون الكلمة الأخيرة؛ لكن أتعلمين؟ لو كُنت أعلمُ حقاً متى ستكون لحظة رحيلي عن هذه الحياة، وتبقى لي بضعُ من الدقائق، وقالوا لي تمنى: فسأقول لهم أتمنى أن أكتب، وأمسك بقلمي وأخط به " اعترافاً وأمنية، أنا الذي قد تبقى لي من هذه الحياة دقائقُ معدودة، لو قيل أين تتمنى أن تقضيها، لقلتُ لهم: أمام عينيكِ "

كان عليَّ أن أرحلَ دون الإجابة عن كل هذه الأسئلة، كان علي أن أتركَكِ قويةً حين أضعفني المرض، كان علي أن أحاولَ البحثَ عن نبضٍ آخر عله يمنحني فرصة لأن أكملَ ثورتي من جديد، كان علي أن أبحثَ عن وطنٍ يُشبهنا، عن سنواتِنا المسروقة، عن حقنا المسلوب، عن أمنيتنا اليتيمة الضائعة، كان علي أن أهربَ من لحظةٍ لا أريدُ فيها أن أقولَ لكِ أن هذا القلب الذي يُخرج حباً قوياً، هو في الحقيقة ضعيف، كان علي أن أفعل كل هذا كي لا أراكِ، وأن لا أراكِ أهونَ عليَّ بكثيرٍ من أن أراكِ للمرة الأخيرة.

إنهُ شعورٌ مختلف، أن تُحب لأول مرة،
وأن تتنفس شخصاً بدل الهواء لأول مرة،
وأن تصبحَ قوياً بعد الضعفِ لأول مرة،
وأن تشعرَ أن لك وطناً لأول مرة،
وأن تكتبَ على العكس مني حُباً لا موتاً لأول مرة،
وأن تشعر أن بداخلكِ قلبٌ ينبض نبضاً كاملاً لأول مرة،
وأنتِ حين جئتِ شعرتُ بكل ما سبق لأول مرة،
تنفستُكِ،
وقويتُ بكِ،
واستوطنتكِ،
وكتبتُكِ
وبعد أن عشتُ عمري بنبض قلبٍ ناقصٍ
شعرتُ به كاملاً حين نبضتكِ،

ويا اللّه كم تمنيتُ
في كلِ أولِ مرةٍ
أن لا تكون هذه المرة، آخرَ مرة.

❖❖❖❖❖

كنتُ أتذكره مع كلِ صاروخٍ يقصفُنا، ومع كلِ صوتٍ يأتي من مأذنة المسجد يُعلنُ أن فلانَ بن فلان شهيدا، كنتُ أتذكرهُ حين تقصفُ طائرةٌ بصاروخٍ يزنُ طناً من المتفجرات بيتاً صغيراً به امرأةٌ وثلاثة أطفال، فنجدهم تحت الركام قد احتضنتهم أمهم كي لا يُجرحوا قبل أن يموتوا، كنتُ أتذكر والدي حين يسير طفلٌ في جنازة والده ووالدته الذَيْن استشهدا بقذيفة دبابةٍ، لا يبكي لأنه لا يعي بعد ماذا يعني الفراق، وحين يغادر الجميعُ يقفُ على قبرهم وفوقهُ طائرةٌ حاقدةٍ تراقبه، ثم يذرف دمعةً ويرفعُ رأسه للسماء ويقول للطائرة، أنا ابن الشهيد، أنا ابن الشهيدة، ويمسحُ دمعتَه ويمضي.

ما لم أقلهُ لكِ ،، !

الليلةُ الرابعة..!

السلامُ عليكِ يا أمي،

السلامُ على عينيكِ الجميلتين الذابلتين الرقيقتين الدامعتين دوماً بدون إذنٍ،

السلامُ على قلبكِ السماوي الذي لا تليقُ به هذه الأرض،

السلامُ على نبضكِ الذي ينبضُ بداخلي بدون توقفٍ،

السلامُ عليكِ يا وطناً لا يمكنُ له أبداً أن يكون يوماً منفى.

لعلني أراكِ الآن بقلبي، برُوحي التي تحلقُ فوقكِ وحولكِ، وأنتِ تقرئين هذه الكلمات، وأنتِ تكتشفين مع كل حرفٍ فيها كم كان صغيرُكِ كبيراً، وأنتِ تفهمين الآن لماذا كان يُصرُّ دائماً أن تغفو عيناه وهو على صدركِ، لا أريدُ أن أنسج لكِ جدائل الحرفِ الكثيرةِ كي أقول لكِ أني أشتاقُ إليكِ جداً، وأحتاجُكِ جداً، ولستُ أكتبُ كل هذا كي أخبركِ بذلك، إنني أمارسُ كل هذا الوجع كي أقول لكِ فقط كم هو قاسٍ أن يحيا الإنسان وحيداً؛ لكن كل هذه القسوة لا شيء أمام أن يرحل عن هذه الحياة وحيداً أيضاً.

إنني أحبُكِ، أحبُ قربَكِ وقلبكِ وحضنكِ، أحبُ الحياة التي جعلتني طفلكِ؛ ولعلني دائماً في زحمة كل الأشياء والأوجاع، كنت أقول: لو أن الشيء الوحيد الذي سأخرجُ فيه من هذه الحياة هو أنكِ أمي، لكفاني، ولو أني كنتُ أتمنى أن يطول عمري أكثر فذلك لأني أريدُ أن أحيا معكِ أكثر، أحاول بهذا القلبِ الضعيف أن أرسم ابتسامة على ثغركِ الجميل، ابتسامةً لا تشبه تلك التي كنتِ ترسمينها حينما أعودُ للبيت كي تُشعريني

أنكِ بخير، وأنتِ لستِ بخير، لدرجة أنني في كل مرةٍ كنتُ أسأل نفسي، كم هي المرات التي كانت بها هذه المرأة بخير؟، كم كنتِ عظيمة، وكم كُنتُ عاجزاً على أن أنتشلكِ من ضفةِ الحياةِ الصعبة والشاقة إلى ضفةٍ أخرى حيث الراحة والطمأنينةُ والابتسامة الدائمة.

وها أنا الغائبُ عنكِ، الجالسُ في غرفةٍ بيضاءَ وحدَه يحاولُ أن يكتبَ لكِ شيئاً ويعجز... أشعرُ بالوحدةِ تلتهمني، وحدةٍ لم أكن أشعرُ بها أبداً وأنتِ بجانبي، غريبون أولئك الذين يشعرون بالوحدةِ وأمهاتهم بجانبهم، أي وحدةٍ هذه التي ستبقى حين يرتمي أحدنا في حضنِ أمه وتمسحُ على رأسه بيديها الجميلتين، أي وحدةٍ يا أمي، وها أنا في هذه اللحظات التي أكتبُ لكِ فيها وأنا على بُعد ليلة من النهاية المتوقعة، لو أن كل هذا العالم الذي حولي حضنكِ فقط، لو أنه حضنكِ.

إن أكثر ما يحرص عليه المعلمون والكُتاب والمربون هو أن يخبرونا ماذا تعني الأم، وكم هو قلبها كبير، وكم

هي طيبةٌ ونبعٌ للحنان، ونكبرُ ونحنُ نحمل هذه القناعة شيئاً فشيئاً، إلى أن نصل لمرحلةٍ لا نشعرُ فيها أن هذه المرأة تتعب، أو أنها تحزن، أو أنها لا تحتاجُ مثلَنا لراحةٍ وحياة، نكبرُ ونحن نعتقد أنه بما أنها أم، فهي خُلقت لأجلنا لا لأجلها، خُلقت لتربينا وتحملَ همومنا وتخففَ آلامنا وأحزاننا، مع أن كل ما سبق صحيح؛ لكن ألم يفكر أحدٌ منا من سيحمل همَّها ويخفف ألمها وحزنها، كُنتُ أفكر في ذلك كثيراً، أفكرُ فيكِ طوال الوقت، ولم يكن لي هدفٌ في هذه الحياة إلا أن أحملكِ على قلبي وأسيرُ بكِ هوناً على هون، أعُيدكِ تلك الفتاةَ الصغيرة التي يعشقُ الصبح طلتها، أنزعُ كلَ حزنٍ من صدركِ إلى الأبد.

أتعلمين يا أمي، حين كنتُ صغيراً كُنت أعتقدُ أن الشمسَ تشرقُ منكِ، فقد كُنتُ أفتحُ عيناي دائماً عليكِ بعدها أرى النور يخترقُني، يملئني، ويملأ الكونَ حولي، وحينما كُنتُ أصحو فلا أراكِ وأرى الشمس قد طلعت، أقول بيني وبين نفسي أنكِ ربما متعبةٌ أو نائمة وأرسلتِ الشمس وحدها كي توقضني، وحين كبرتُ

باتت هذه القناعة الطفولية حقيقةً بالنسبةِ لي، ذلك أنه مهما كان النور حولي لن أراه إلا حين أرى عينيكِ.
لقد كنتِ دائماً تعتقدين أنك قادرة على حل كل مشاكل الدُنيا، حتى ونحن نكبر وتكبر أعباؤنا ويزيد هُمنا معنا، كنتِ أيضاً ترينه صغيراً، تعتقدين أنكِ صلبةٌ جداً لن تكسرَكِ الأيام ولن تثني ظهركِ الحياة، كنتُ أنظر إليكِ دائماً وأنتِ جالسة بعد كل صلاةٍ تقرأين كتاب اللّٰه بصوتكِ المتعبِ الحنون، وتحاولين أن تخفي عني دمعكِ الذي تتوسلين به إلى اللّٰه أن يحفظني ويُبقيني نوراً لعينيك وسنداً لضعفكِ، في كل مرةٍ كُنت أكتشفُ حقيقةً كم أنتِ متعبةٌ مثلي، وكم تحتاجين لحضنٍ وكتفٍ تستلقين عليه، وكم أنتِ إنسانةٌ من قلبٍ وروحٍ وكثيرٍ من الحُب.

يقول درويش حين وصف أمه "كلُ النساء كلماتٌ عابرة، وأنتِ وحدكِ نصُ القصيدة"، لماذا جعلها درويش جزءً والأم كل الكُل، الحقيقةُ هي أنكِ أنتِ القصيدة والشعرُ والشاعرُ والموسيقى التي لا تنتهي، ولن تنتهي.

لم تكنْ مَهمتكِ في هذه الحياة أن تكوني لي أماً فقط؛ بل أباً أيضاً بعدما استشهد والدي قبل أن أراه، وأن تكوني كل هذا فمعناهُ حقاً أن لكِ قلباً يسعُ هذه الدُنيا وما فيها، وعلى الرَغم من محاولاتكِ الدائمة أن تبقيني بعيداً عن قضية والدي وتعتقدي أن الجزء الذي أخذه الوطن منكِ كافياً؛ إلا أننا نحن الفلسطينيون لسنا بحاجة إلى أن يكون والدُ أحدنا شهيداً أو أسيراً أو مقاتلاً كي يكون ثائراً، ووالدي لم يكن رجلاً فقط، بل كان قضيةً كاملة أراها كل يوم في حارات مخيمنا وعلى جدرانِ شوارعه ووجوه رجاله، إن قدر الذين يُولدون في وطنٍ ثائرٍ هو أن يكونوا ثواراً، فالأوطان التي تُسلبُ لا يمكن أن تعودَ بدونِ ذلك، ووالدي علمني باستشهاده ما لم يستطعْ أحدٌ أن يعلمني إياه في حياته، فكما قلتُ لكِ سابقاً، ليس هناك من يمنحنا الحياة كالشهيد، لقد كان رحيلَه كافياً ليعلِّمني كلَّ أبجدياتِ حب الوطن، وطقوسِ العيش فيه، فمثلي الذي وُلد في الانتفاضةِ الأولى، وعاش الانتفاضة الثانية، وعاصر ثلاثة حروبٍ يلفهما حصارٌ حتى على الهواء الذي

نتنفسه، ليس بحاجةٍ لأن يخبرهُ أحدٌ ماذا يعني أن يكون أبوكَ شهيداً؟.

كنتُ أتذكره مع كلِّ صاروخٍ يقصفُنا، ومع كلِ صوتٍ يأتي من مأذنة المسجد يُعلنُ أن فلانَ بن فلان شهيدا، كنتُ أتذكرهُ حين تقصفُ طائرةٌ بصاروخٍ يزنُ طناً من المتفجرات بيتاً صغيراً به امرأةٌ وثلاثة أطفال، فنجدهم تحت الركام قد احتضنتهم أمهم كي لا يُجرحوا قبل أن يموتوا، كنتُ أتذكر والدي حين يسير طفلٌ في جنازةٍ والده ووالدته الذين استشهدوا بقذيفة دبابةٍ، لا يبكي لأنه لا يعي بعد ماذا يعني الفراق، وحين يغادر الجميعُ يقفُ على قبرهم وفوقهُ طائرةٌ حاقدةٍ تراقبه، ثم يذرف دمعةً ويرفعُ رأسه للسماء ويقول للطائرة، أنا ابن الشهيد، أنا ابن الشهيدة، ويمسحُ دمعتهُ ويمضي...

إن الشيء الوحيد الذي لا يمكن أن يموتَ أو يُنسى في هذا الوطن هو الوطن، هو الشيءُ الأزليُ الخالدُ الذي لا ينتهي، هو الذي يُشبهُ الصغارَ والكبار، الأرصفة

والفقراء، الشوارعَ وقطعةَ السماء، الأمهاتِ اللواتي يلدنَ الشهداء تلو الشهداء، الرجالَ الكادحين الذين تحبُهم الشمسُ ويعرفهم الضياء، الأطفالَ الذين مزقت القذائف المسمارية وجوهَهم الصغيرة والبريئة، الفتياتِ الصغيراتِ المريماتِ اللواتي انتظرن العاشقَ كي يأتي، وحين جاءهنَّ.. كان شهيداً...!

هذا الوطن لا يمكن أن يُنسى، لا يمكن لكل هذه الأوجاعِ أن تموت، حتى حين يعود لنا، ونبكي من شدة الفرح، ويُكتب أسماء الذين قضوا لأجله على جدارن مُدننا المحررة، ستقفين شامخةً كجبال الجليل تقولين بصوتكِ : أنا، أنا زوجةُ الشهيد، أنا التي كنتُ قيد التنفيذِ شهيدة.

لأجل ذلك كله؛ كان علي أن أكون مثل والدي، أحملَ حِمْلَ وطني المحتل على كتفي وأسيرَ بهِ، أحاربَ لأجله بالصوت والقلم والعلمِ والفكرِ والدمِ، والحقيقةُ هي أنه لولا هذا المرض الذي أصابني لوجدتني أحمل سلاحَه، أواصلُ طريقَه، وأُثبتُ له أن الشهداءَ يرحلون بجسدهم

فقط، وأنهُ حيٌّ في داخلي، يُعلِّمني كلَّ يومٍ كيف أسيرُ وأين أسير.

❖❖❖

تذكرين صديقي علاء، الشابَّ المصريَّ الذي التقيتُ به حين وصلتُ إلى هنا، وأخبرتكِ عمّا جرى بيننا حينها؟ كان لي مَعَهُ موعدٌ اليوم أيضاً، وكأنه يعلم أني سأكتبُ لكِ هذه الليلة فأراد أن يكون له من الذكرى نصيبٌ، وجدتُهُ يسيرُ وحيداً في ساحة المستشفى، سلَّمتُ عليه وكان قد حان موعدُ صلاةِ الظهر، صلينا معاً وجلسنا بعدها نتبادلُ أطرافَ الحديث، أخبرتُهُ عن نتيجةِ فحوصاتي وموعدِ العملية، وهو أخبرني أيضاً؛ لكن يبدو أن قدَرَهُ في هذه الحياةِ سيكون مختلفاً عن قدرَي، فأملُ نجاحِ عمليته كبيرٌ جداً.. قلتُ له:

- ماذا ستفعلُ بعد أن تغادرَ من هُنا؟

ابتسمَ وقال:

- أراك تقولها وأنتَ متأكدٌ أن العمليةَ ستنجحُ، يا صاحبي في كل الأحوالِ إنْ كتبَ اللّه لي الشفاءَ؛ فإن كلَّ ما سأفعلُه هو أن أبحث عن مكانٍ لأعيش فيه بعيداً عن وطني؟

- ألا تريد أن تعودَ لمصر؟ لماذا؟

- ليس لمصرَ فقط؛ بل لكل أوطاننا العربية، لكل أوجاعنا يا صديقي!

ابتسمتُ لحديثهِ، ليس ابتسامةَ سُخريةٍ؛ بل ابتسامة حزن.. في السابق كان جرحُ أمتنا كلّه هو فلسطينُ فقط، واليوم لا ندري على أي جرحٍ نبكي!! فكلُّ الأمةِ باتت جرحاً كبيراً غائراً يقطرُ دماً وينزفُ وجعاً، قلتُ له:

- أتعلمُ يا صديقي، القضيةُ هي أنكم كنتم تعتقدون أن الأمر سيتوقفُ على ضياع فلسطين فقط؛ في حين أن ضياعها هو في الحقيقة بدايةٌ لضياع الأمةِ كلّها، ولو كان حُكامنا وجيوشُنا ذوي بصيرةٍ وقبل ذلك انتماءٍ وإيمان؛ لعرفوا ذلك جيداً ولاستعادوا فلسطين كي لا تضيعَ الأمة، إنَّ الاحتلالَ الصهيونيَّ كالسرطانِ الذي أصابَ عضواً في جسدِ الوطن الكبيرِ، إن لم تجتثُّه فسيمتدُّ إلى باقي الأعضاء شيئاً فشيئا.

نظرَ إليَّ بصمتٍ محاولاً أن يستوعبَ ما أقولَه، وفي الحقيقةِ هو أنَّ ما قلتَه يحتاجُ إلى أكثرِ من أن ينظرَ بعينيه، ويستوعبَ بعقله، إنه يحتاجُ إلى أن نعودَ بقلوبنا إلى حيثُ ننتمي، ليس أرضاً ولا وطنا ولا حجراً؛ بل عقيدةً وإيماناً بأنَّ ما نحنُ عليه الآن كان لابدَّ ألا يكونَ، قلتُ له:

- إن كُنَّا مُحتلين أرضاً؛ فالحقيقةُ هي أن وطننا العربي مُحتلٌ فكراً ووعياً وثقافةً واقتصاداً وحتى سياسياً وعسكرياً، إن هذا السرطانَ يعلمُ جيداً ماذا يعني أن تكون هذه الأمةُ إسلاميةً عربيةً خالصة، لا شائبة فيها، ويعلمُ جيداً ماذا يعني أن يكون أبناؤها ذوي فكرٍ صحيح ووعي بحقيقة التاريخ، وقبل كل ذلك إيمانهم بالأمة الواحدة لا الدولةِ التي رسموها لنا.

صَمَتَ قليلاً ثم قال:

- إنني أعي جيداً ما تقول، وأعي أيضاً نتيجةَ كلِّ هذا، وها أنتَ تراه، الأوطانُ التي كنتم تنتظرونها لتحرركم باتت غيرَ قادرة على أن تحرِّرَ نفسها، حتى بعدما ثُرنا وانتفضنا وبات هُناك بصيصُ أملٍ أن تعودَ الأمةُ لمجدها، أحالوا أوطاننا إلى جحيم، إننا نحترقُ يا صديقي، تحترقُ أوطاننا بأيدٍ ظننا يوماً أنها تنتمي إلينا، وبتنا بدل أن نموت لأجلها، نموت فيها وعلى يدها.

أعرفت لماذا قلتُ لك لا أريد العودة إلى هُناك؟

نظرتُ إليهِ بصمت، بعض الأوجاعِ لا نعرف ماذا نفعلُ أمامها، الصمتُ والكلامُ حينها سيَّان، رأيت الدموعَ وهي تُكملُ عنهُ، قال بحزنٍ شديد:

- ليست أوطاننا تلك التي تغتال فينا أجمل شيء، ليست أوطانَنَا تلك التي باتت سجناً كبيراً نعذبُ فيه لأننا ننتمي إليه فقط، ليس هناك أكثر وجعاً

يا صديقي من أن تموت على يد وطنك، وطنِكَ الذي وُلدتَ وتربيت وكبُرتَ فيه، ليس هُناك أكثر وجعاً من أن ترى أماً ابنها الذي يكبرُ في عينيها لحظة بلحظة، قد عاد بدمه دونما سبب، ليس هُناك أكثر وجعاً من أن يموت الأطفالُ فقط لأن هناك مجرمٌ يريدُ أن يكون حاكماً وإلهاً.

أوجعَني هذا المصريُّ وجعاً فوق وجعي، جعلني أفكرُّ في دائرةٍ لهذا القلب أوسعَ مما كانت عليه، وبتُّ أرى كلَّ أوطاننا فلسطينَ، وكلَّ أوجاعها وجَعنا الذي شعرنا به، كنتُ أنظرُ إلى وجههِ الشاحبِ فأرى مرسوماً عليه خارطةَ وطننا العربيِّ الكبير، وحين ذرفَ الدموعَ، باتت تمسح الحدودَ التي قسمتْه، حتى بات قطعةً واحدةً، رأيتُ حينها كيف ذابت الأوطانُ في بعضها، رأيتُ كم نحن نشبه بعضنا، رأيت كيف تشبهُ تلك الدولة في أقصى الشرق تلك التي في أقصى الغرب، وكيف تمتزج سمرة تلك الدول في الجنوب ببياض التي في الشمال،

رأيت وطناً واحداً موحداً بدون أوجاعٍ ولا آلامٍ ولا حُزنٍ ولا بكاء، قلتُ له:

- نحنُ موحدون يا صديقي، نحنُ أمةٌ واحدةٌ برَغم كلِّ شيء
- أمةٌ واحدة، ماذا تقول يا رجل؟ لو أننا أمةٌ واحدة لَما جرى ما جرى
- حين سألتُكَ ماذا ستفعلُ بعد أن تخرجَ من هُنا، قلتَ لن تعود، ليس لِمِصْرَ فقط؛ بل لكل أوطاننا العربية، لو أننا لسنا أمة واحدة لما نسبت كل الأوطان الأخرى إليك، ورأيتها كما ترى مصر.

يا صديقي، نحنُ موحدون جداً،

موحدون لدرجةِ أن الفلسطيني يشعرُ أنه لا فرقَ بين الصاروخِ الذي يَقصَفُ بيتُه في غزة، وبين ذلك البرميلِ المتفجر الذي يسقط فوق بيتٍ في دمشق.

موحَّدون لدرجة أن أماً مِصريةً قُتلَ ولدُها الوحيدُ فقط لأنه ينتمي لوطنهِ تجدها ترفعُ كفيها إلى

السماء وحين تدعو له تقول، اللهم عليك بمن ظلمنا وفرقنا وشتتنا.

موحدون لدرجة أنكَ ترى الليبيَّ ووطنه محترق، واليمنيَّ وأرضه تقصف، والخليجي والمغربي والتونسي والشامي والأفريقي والبوسني والأندونسي والماليزي وكلَّ مسلمٍ على وجهِ الأرض، برَغم آلامه وأوجاعهِ حين يقول المسجد الأقصى هناك في القدس آهٍ، تجدْهم جميعهم بصوتٍ واحدٍ يقولون لبيك،.

لا أدري بماذا شعرتُ حين قلتُ ذلك، ولا بماذا شعرَ، ولم أكنْ من قبلُ أعي أني أؤمنُ بكلِّ هذا، وقف من مكانهِ وقال لي:

- إن كنا كذلك يا صديقي، فأين المشكلةُ إذن؟ أين المشكلة؟

قال لي ذلك ثم مضى.. فوقفتُ بسرعةٍ ولحقتُ به كالذي وجدَ ضالَّته، وقلتُ له:

- المشكلةُ ليستُ في أننا منقسمون أم لا، لن يستطعَ أحدٌ أن يفرقنا أبداً، المشكلةُ هي أننا نحتاجُ فقط إلى أن نؤمن بذلك، إلى أن نزيل عن قلوبنا غبارَ كل هذه السنين الملوثة، أن نعي جيداً حقيقة ما يجري حولَنا، إننا نحتاج يا صديقي إلى أن نلفِظَ خارجَ عقولِنا كلَّ فكرةٍ مشوهة، وكلَّ عقيدةٍ دخيلة، وكلَّ سلطانٍ مزيف، وكل سلاحٍ ليس مكتوباً عليه، صُنِعَ في وطني.

- صدقتْ!؛ لكننا نحتاجُ إلى عشرات السنين الأخرى، وألافِ الضحايا كي نفعلَ كلَّ هذا، لقد تعبنا.. تعبنا جداً...

كان علاءُ محقاً، وكنتُ أنا كذلك، ما أكثر الأسئلةِ فينا وليس لها إجابة سوى العجز والصمت، هذا العربيٌ الذي يبعد عني عدة كيلو مترات فقط، جعلوا له وطناً آخرَ، وجنسيةً أخرى، وفكراً أخر، مع أننا أمةٌ ذات دينٍ ولغةٍ ودم واحد.

كان علاء مثقلاً بالألم، وأنا كذلك، لدرجةِ أنه كان يستطيع من ينظر إلى عيوننا وملامحِ وجهَيْنا أن يرى ذلك القدْر الهائلَ من التيه، من الأسئلة اليتيمة والأجوبة الضائعة، الفرق بيننا هو أننا الفلسطينيون وُلدنا في وطنٍ محتل، مسروق، عشنا منذ الطفولةِ ونحنُ نقاتلُ لأجل حريته واستعادته؛ بينما هم فقد صنعوا لهم وطناً مزيفاً، وحريةً مزعومة، وسلطاناً واهما، حتى اطمأنوا ووضعوا رؤوسهم على وسادة الوهم، سرقوا منهم أوطانهم كلها، جردوهم من كل شيء، ورفعوا في وجوههم يافِطَةً كبيرة جداً مكتوبٌ عليها " كلُّ شيءٍ في هذا الوطنِ مباح، حتى أنت ".

لعل "سيلينا" كانت محقةً حين أخبرتني في أول لقاء بيينا هُنا كم أنا غريبٌ لأني لستُ خائفاً أو مكترثاً لوجع

هذا المرض وما سأكون عليه، الحقيقة أنها تجهلُ أننا مصابون بمرضٍ أخر أكبر من كل هذا، يُنسينا أيَّ شيءٍ أخر، مصابون بمرضِ الغُربةِ عن أوطاننا، بمرض النفي منها ونحن فيها، بمرضٍ يصيبُ قلبَك بوجعٍ لا تُهدهدهُ كلُّ أدوية الدُنيا.

جال بخاطري حينها حين وقفتُ على مسرحِ الجامعةِ بدورِ "ثائر" ، ذلك الشابَّ العربيَ الذي اعتقلوهُ لأنه قال: لا، تذكرتُ تلك الكلماتِ التي صرختُ بها بقلبي في وجه المحققِ الذي كان يُعذبني وقلت له:

تدوسونِ أرصفةَ المتعبسِ
ولا تنصتونِ لصوتِ الجياعِ
تسدّونِ جوعِ اليتامى باهِ
تعيدونِ للدربِ معنى الضياعِ
تضيقِ الحياةِ علينا تضيقِ
وأنتم يريدونِ في الإرتفاعِ
فيا سيدي كِن أمينا وقلْ:
لماذا لنا الارضُ تبدو كقاعٍ ؟

يمشي بشارعنا كي يرى
وجوهِ شبابٍ هنا متعبين
وشاهِدْ على كلِّ مستودعٍ
ما تشاءِ من الجائعين
بِمِعِنْ بكاءِ الصغار
لتدركِ كيفِ بكى الياسمين ..![1]

كانت النهايةُ حينها على عكس كلِّ التوقعات، انتصر الثائرُ على السجّان، وكُسرَ القيدُ، وانزاحتْ العَتمةُ، وانتصرت الإرادةُ، ولَفَظَ الوطن أولئك المرتزقة الذين يتاجرون بكل شيءٍ حتى بأوطانهم، وأثبت أن الباطل لا يمكن له أن ينتصر. كانت تلك الكلماتُ كافيةً لتخبرني أنه مهما طال ليلُ هذا الظلم فلابدَّ للفجر من بزوغ، وها أنا الجالس على هذا المقعد الخشبي الأبيض، وأمامي على هذه الأوراق البيضاء ظلامٌ ممتدٌ لا أرى له نهاية، أتُراه ينتهي؟ أتُراه يخبىء لنا نوراً يكفكفُ من

[1] المسرحية الشعرية "ثائر" كلمات الشاعرة: آلاء القطراوي، ٢٠١١

دمعاتِ قلوبنا المقهورة، أتُراني سأحيا لأشهدَ تلك النهاية المسرحية تتجسد في أوطاننا وواقعنا المكلوم، أتُراني سأنتهي من كتابة هذه الكلمات قبل أن يغفوَ القلبُ غفوته الأخيرة عن النبض، لا أدري يا أمي؟ لا أدري حقا.. كل ما أريدهُ هو أن أكتب.. لألقاكِ بالكلمات، لأقبِّل عينيكِ مع كل حرفٍ أكتبُه، أحضنكِ بين كلِّ سطر وآخر، إلى أن أغفوَ على يديكِ الناعمتين، ولا أصحو أبداً.

لم تكن أوجاعُ أوطاننا العربيةِ بمنأى عن أوجاعنا، كُلُّنا ننبض بقلبٍ واحد، ولم يكنْ ذلك اليقينُ بنصرِ فلسطين وتحريرها بمنأى عن يقيني أيضاً بأن هذه الأوطان ستتحرر من قيودها، وستعودُ لها كرامتها من جديد، حتى وإن قتلوا ثورةً فيها فستولدُ ثورةٌ أخرى أشدُّ ضراوةً من التي سبقتها، ذلك أن هذه الأوطان وُلدت حرة، لا يمكن لها أن تقبلَ أن تكون غيرَ ذلك؛ حتى وإن طال زمنُ استعمارِها، تبقى كالجمر تماماً تخبئ ناراً ستشتعلُ من جديد، وما أولئك الذين يموتون كلَّ يومٍ في شوارعها وحاراتها وميادينها وسجونها إلا دليلاً

على ديمومة الدمِ الثائر في شراييننا، في أوردتها، في عبق أنفاسها.

إن وطننا العربيَّ حُرّ؛ لأجل ذلك يحاولون بكل ما أوتوا من قوةٍ وسلطانٍ ومالٍ وكُفرٍ أن يستعبدوه، أن يستعبدوا الإنسان فيه، أن يبدِّلوا دينه وفكرَه وثقافته، أن يجعلوهُ عربياً بالاسم فقط، أن يجعلوه تابعاً لهم في كل أمورِ حياته، أن يكونَ بلا فكرٍ ولا وعيٍ ولا تاريخٍ ولا حضارة، وربما يكونون قد نجحوا في ذلك؛ لكن ليسَ مطلقاً ولا دائماً، إنما هي غيبوبةٌ مؤقتةٌ ستنتهي قريباً، ذلك أن ما يجهلهُ هؤلاء هو أننا نملكُ عقيدةً منبعُها الروح، أشبهَ بالطاقة المتجددة التي لا تنتهي، عقيدةً ثابتةً راسخة، نحتاج فقط لإزالة غبارهم عنها لتعودَ ونعودَ نحن من جديد.

****

**

*

لم يتبقَّ سوى ليلة واحدة يا أمي، وربما أغادرُ هذه الحياة للأبد، وأُبقي لكِ بضعًا من الذكرياتِ وهذه الأوراقَ وكثيرًا من الحنينِ والحُب، لا أستطيع أن أصفَ لكِ ما أشعرُ به وأنا أجهزُ نفسي للحظتي الأخيرة، كنتُ أتمنى لو أن هُناكَ ليالٍ أكثر لكي أكتب لكِ فيها، ولكي أفُرِّغَ كل هذا الحنين الذي بداخلي لكِ.

هذه الليلة الحالكة جداً لولا وجهُكِ البدريُّ الذي أضاءها، تقتربُ من النهاية، تأخذُ مني قلمي وأوراقي وحروفي وكلماتي، تماماً كما تأخذُ مني حياتي، تُنذرني دقات الساعة باقترابِ النهاية، تقربُني من لحظةٍ لا أدري هل أريُدها أم تريُدني؟، هل أحتاجُها أم تحتاجُني؟ هل أخافُها أم أنها تخافُني؟، لحظةٌ سأغمضُ فيها عينيَّ لآخر مرة، وستفقدُ يداي هاتان مقدرتهما على الكتابة مرة أخرى، وستمنحُ كل أعضاء جسدي سلطةَ الحياة للقلب، بأن يحاول أن يكون على قدرِ الحياة كي تستمر في الحياة، لحظةً لا أتمنى فيها إلا أن أغمضَ عينيَّ عليكِ، وأنتِ تبتسمين؟

لعل ما كتبتُه لمريمَ في الليالي السابقة كافٍ ليُخبركِ بحقيقة كل شيء، ولعلكِ تُدركين الآن كم يستحقُّ طفلكِ أن تغفري له أخطاءه الصغيرة والكبيرة، أن تغفري لي كل ليلةٍ غفوتِ بها مع دمعك بدوني، وكل صباحٍ لم تكحلي عينيكِ بي، وكلَّ فرحٍ حلمتِ به ولم يتحققْ، وكلَّ حُزنٍ كان عليَّ أن ألقاهُ عنكِ.

لعلكِ تدركين كل هذا يا سيدة قلبي؛ مع أنني أعلمُ جيداً أنكِ لستِ بحاجة لكل هذه الكلمات كي تغفري لي، فقلبكِ هذا لا يحملُ سوى الحُبَّ، سوى الحياةَ التي أبحثُ عنها.

السلامُ عليكِ في آخر الكلمات كما أولها،

السلامُ على دمعكِ الذي مهما كتبتُ لأكفكفَه؛ إلا أنه يُصِّرُ على أن يقرأ الحكاية.

السلامُ على صباحاتٍ أشتاقُها، ومساءات أشتهيها، ولحظاتٍ لن أنساها

السلامُ عليكِ يا "أمي" وحُبُّ اللّه ورحماته!

****

*

" تخيلتُ أن تُمسك هذه المرأة بيدي أمام اللّٰه وتقول لهُ، لقد عشتُ معه خمسة أيامٍ بلياليهنْ، لم يقل لي عنكَ شيء، انتفض جسدي كله كرعشة الموت الأخيرة، رفعتُ رأسي من السجودْ، ورتلتُ سورة الفاتحة، ثم صمتُ قليلاً، ووجدتُني بدون أن أشعر، أتلو أول عشر آياتٍ من سورة فاطرْ، لماذا؟ كيف؟ لا أعلمْ، لا أعلمُ سوى أن هناكَ شيئاً حرك قلبي وجعل لساني ينطق بهذه الآياتٍ، لا أذكرُ أنني قرأتُ القرآن في حياتي كتلكَ المرة، قرأتهُ كما لو أنني أقرأه لأول مرة"

ما لم أقلهُ لكِ ،، !

الليلةُ الخامسة

لأولِ ليلةٍ منذُ جئتُ هُنا وأنا أحاول أن أكتبَ فأعجز، وها هي الليلة الأخيرةُ تقتربُ من النهاية، تقتربُ لحظة المثول أمام عدالةِ هذه الحياة، تقتربُ تلك الخاتمةُ المُقدرة رغم كل محاولاتنا لتغييرها، بعد قليلٍ ربما أُصلي أخر صلاة فجر لي في هذه الدُنيا، أشعرُ أنني أحتاج أن أهمسَ للّه أشياء كثيرة، كثيرة جداً، أحادثهُ بقلبي وروحي، أتلو آياته، أبكي بين يديه، وأقول له كم أنا مشتاقٌ إلى قُربك.

ولأن لكل أمر خاتمة، ولكل حكاية نهاية، ولكل رواية نقطة تتوقف عندها الكلمات؛ سأحاولُ أن أمارس الكتابة مرة أخرى، فربما أستطيع من خلالها أن أعقدَ لقاءً أخيراً بيني وبينكم، أراكم، أحادثكم، أقبّل عيونكم، وأودعكم.

لم أغادرْ غرفتي منذ الصباح على غير العادة، أردتُ أن أراقبَ الحياة وهي تسيرُ حولي من بعيد، أردتُ أن أرى تلك اللوحة وهي فارغة مني، كيف عساها أن تكون؟، كان يومي خالياً من أي شيءٍ سوى سيلينا، التي لأول مرة تأتي إليَّ لأجلها لا لأجلي، طرقت الباب أثناء صلاتي، وحين سمعتني أتلو القرآن فتحتهُ ودخلتْ، فهي تعلمُ أنني حين الصلاة لا أستطيع أن أجيبها، كُنتُ قد انتهيتُ من الركعةِ الأولى، فكرتُ حينها في كلانا، وتخيلتُ ذاك المشهد الذي سنقف فيه أمام الله، كُنتُ أعلمُ أنه بقدر ذنوبي الكثيرة إلا أن الله رحيمٌ عظيمٌ بمن آمن به وعاشَ حياته كلها يعبدهُ كما أمره، لكن ماذا عن هذه المرأةْ، التي لا تعرف عن حقيقة هذه الحياة سوى ظاهرها ومتاعها، ولا تعرف عن حقيقة الموت سوى

ما كتبه رهبانهم وقديسيهم هوى ومتاع، هذه المرأة التي تحتاج كملايين الناس التائهين عن اللّه من يزيل الغبار عن قلوبهم، لم يكن الأمر بهذه الصعوبة أبداً، فهذا الدينٌ وحدهٌ مجرداً يكفي لأن يغيَر القلوب ويخترقها، تلك الآيات السماوية قادرة على منح أي قلب مليء بالهمِ راحة وطمآنينة حتى لو قيلت بلغةٍ تختلف عن لغتهم، تخيلتُ أن تُمسك هذه المرأة بيدي أمام اللّه وتقول لهُ، لقد عشتُ معه خمسة أيام بلياليهنْ، لم يقل لي عنكَ شيء، انتفض جسدي كله كرعشة الموت الأخيرة، رفعتُ رأسي من السجودْ، ورتلتُ سورة الفاتحة، ثم صمتُ قليلاً، ووجدتُني بدون أن أشعر، أتلو أول عشر آياتٍ من سورة فاطرْ، لماذا؟ كيف؟ لا أعلمْ، لا أعلمُ سوى أن هناكَ شيئاً حرك قلبي وجعل لساني ينطق بهذه الآياتٍ، لا أذكرُ أنني قرأتُ القرآن في حياتي كتلكَ المرة، قرأتهُ كما لو أنني أقرأه لأول مرة، انهيتُ الصلاة والتفتُ وإذ بسيلينا مغمضةً عينيها، أيقنتُ حينها أن ما سمعتهُ اختصر أمامي تلك الطريق الطويلة التي سأتحدث لها عنها، وعرفتُ حينها أن ثمة شيء يجول في قلبها الآن، فتحت عينيها وسألتني عن هذه الكلمات التي

قلتها، فأخبرتُها، كُنتُ أعلم أن فكرةَ الحياة والموت عندي تُثير الكثير من التساؤلاتِ عندها، وتعلمُ هي أن لا أحداً مثلي يمكنه أن يخبرها بما تريد ذلك أنني أقفُ الآن بينهما، بين الحياة والموت، بين الفكرةِ السماوية والعبثِ الأرضي الآدمي، بين حقيقةِ الغياب وغياب الحقائق، جاءت تعللُ تيهها، بأنه لو لم يكنْ هُناكَ أمرٌ غائبٌ عنها لَما جاءت تسأل وتبحث، هذه المرأة أرادت أن تشعرَ بما نشعرُ به حين نفكرُ باللّه، أرادت أن تشعرَ بالطمأنينة لا بالخوف حين يلوح أمامها فكرة الموت، ابتسمتُ وقلتُ لها: إن كان هذا أخر لقاءٍ بيننا فسأتركُ الإجابةَ لكِ في درج المكتبْ، وإن عُدتُ حياً من العملية فسيكون لنا لقاء أقول لكِ فيه كلَّ شيء

أعرفُ جيداً لماذا جاءت هذه المرأة الأربعينية التي ما عرفت اللّه يوماً، وأعرفُ ماذا تريد أن أقول لها، وأعرفُ بماذا تشعر حين ينتهي كل نقاش بيننا، إنها سلطة الإيمان باللّه التي تسيطر على القلب حين تقتربُ منه، وتجبره أن يفتح ذراعيه ويحتضنها، كانت ترى هذه المرأة أن هناك أشياء في هذه الحياة أبعد من أفكارهم

الدنيوية فقط، أشياءٌ لا علاقة للواقع بها، أشياءٌ تخص الرُوحَ المتصلَ بحبلٍ من ضياء مع اللّه، كانت تريد أن تُمسك به لتصل إلى شعور ما شعرتُه يوماً؛ لكنها رأته ماثلاً في عينيَّ.

أمي،

حين يأتون بي إليكِ ! ..

احتضنني كثيراً ،

امنحي جسديَ الباردَ بفعل الموت دفئاً منكِ،

عطريني بأنفاسكِ،

وخلي بيني وبين عينيكِ قليلاً قبل أن يُغمضوها إلى الأبدْ .

أيتها الحبيبة ،

هُناك في زاويةٍ ضيقةٍ جداً من وطننا فتاةٌ اسمها مريم

هي أنا؛ لكن في مكانٍ أخر،

تركتُ لكِ فيها نفسي، فلا تودعيها .. !

مريم،

هذه الحياةُ أبسطُ بكثيرٍ مما يعتقدون،

وهي لم تكنْ بحاجة إلى كل هذه الحساباتِ والتعقيدات،

لحظةُ جنونٍ واحدةٍ تحت المطر كانت كافية لأن تجلبَ السعادة لقلبَينا مدةً أكثر من أشياءٍ أخرى،

قصيدةُ حُبٍ نكتبُها في لحظةِ شوقٍ ونقولها أمام عيون من نحب كفيلةٌ بأن تجعلنا ننامُ بهدوءِ على وسادةٍ فقيرةٍ دونَ الخوف من شيء،

طفلةٌ سمراءُ تشبهُكِ نفتتحُ بها يومنا كفيلَةٌ بمنحِ قلوبنا ابتسامةً تزيل أيَّ حزنٍ سنلاقيهِ،

كان الأمرُ أبسطُ جداً مما نعتقد،

والتفاصيل كانت مُتعبةً . .

وأنا متعبٌ ،

وهذا الحُلم أفقدني أجزائيَ واحدةً تلو الأخرى ! ,,

لا تتوقفي عن الحُبِّ، والقصيدة، وقليلٌ من الذكرى وكما هذا الذي يمنحُنا الكتابة لبعضنا، لنا وطن، فلا تنسي أننا أيضاً له وطنْ.

.

.

.

.

.

.

علاء،

يا صديقي العربيَّ،

إن كنتَ حياً فخذ عني هذه الكلمات،

إذا لم يكنْ وطنُكَ لك وطن،

فكلُّ بلاد الدُّنيا ليست لك وطن،

عُد لتخبرَ الدُّنيا كلَّها أن أوطانَنا هي التي تُهدينا الحياة، لا تلك التي تمنحنا الموتْ.

سيلينا، ،

تلك الكلمات التي سمعتيها مني في الليلة الآخيرة، موجودةٌ في كتابٍ صغيرٍ تركتهُ لكِ في درج المكتب مع هذه الأوراق، إقرئيه جيداً بقلبك وروحكِ، ستعرفين كيف للإنسان أن يجمع بين فكرة الحياة والرحيل معاً. وستعرفين لماذا نذهبُ محملين بكل هذا الشوق إلى اللّه؟

أبي، ،

لأول مرةٍ أشعرُ كم أنتَ قريبٌ مني،

لأول مرةٍ أشعرُ أنك تُمسك بيدي، تمنحني القوةَ على مواصلةِ الخطوات المتبقية.

أتُراني سأراكَ؟

أتُراكَ ستراني؟

أتُرانا سنلتقي بدون فراقٍ إلى الأبد.؟

إليكم جميعاً يا مَنْ منحتُمُوني في ظلِّ منفى القلبْ،
قليلاً من الوطنْ ! ..

ليست النهاية ، ، ، !

الليلةُ السادسة ... !

.....

.....

.....

.....

.....

.....!

الليلةُ السابعة ... !

.....

.....

.....

.....

.....

.....؛

الليلةُ الثامنة ... !

.....

.....

.....

.....

.....

.....!

الليلةُ التاسعة ... !

....

....

....

....

....

....!

الليلةُ العاشرة ...!

... منذ تلك الليلةِ، لم يعدْ بلال ليكملَ ما تَبقَّى من الحكاية، لقد رحلَ وتركَ خلفَهُ كلَّ هذا الحُب، لقد منحنا الحياةَ حين سلَّمته الحياة للموت، لقد أغمض عينيه وقلبَه إلى الأبد، لكن نبضهُ ما زال فينا.

وها أنا أجلسُ على مكتبهِ لليلةٍ الخامسةِ على التوالي، بعدما قرأتُ كلماته التي كتبها هُنا، وبعدما قرأتُ ذاك الكتابِ الذي تركهُ لي، هذا الكتاب الذي ما أحسستُ بطمأنينة القلب إلا حين قرأته وعشتُ كلماته، أقول لبلال الذي رحل: ربما أكونُ قد عشتُ أربعين سنة لا أعرف فيها عن الله شيء، واليوم، وأنا أقفُ على ناصيةِ رحيلكَ الأبدي، وبعدما قرأتُ كلماتٍ لا يُمكن لها أن تكون من قولِ بشر، بتُ أعي جيداً ماذا يعني أن تكون مخلوقاً، وماذا يعني أن يكون لك إلهٌ واحدٌ عظيمْ، وماذا يعني أن تعيش، وماذا يعني أن تموتْ؟، بتُ أعي جيداً أشياءً كثيرة لولاك ما عرفتها وآمنتُ بها، فشكراً لك، وها أنا من غرفتكَ المليئة بالحُب والسكينة وبكل ما أوتيتُ من طمأنينة في قلبي وعقلي أقولُ لروحكَ الطاهرة وهي تحلقُ نحو السماء، خذ معك كلماتي هذه إلى هُناك، وأخبرهم أني آمنتُ بالله وبدينه وبرسولهِ، و**أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأشهدُ أن محمداً رسولُ الله "**

التوقيع | سيلينا

صابر موسى عليان
غزة – فلسطين
saberalian@hotmail.com

@saberalian 00970599954354

معرفة بلا حدود
شركة مكتبتكم الدولية للنشر والتوزيع
تليفون: ٠٠٩٦٥ ٥٦٩٠٧٠١٥٠ | الكويت ـ حولي ـ شارع بيروت ـ مجمع الزاحم
@maktabatcom | مكتبتكم
Email: Maktabatcom.pub@gmail.com

صابر موسى عليان

عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية

عضو رابطة الكتاب والأدباء الفلسطينيين

من الرواية

" كان علـــــي أن أرحل دون الإجابة عن كل هذه الأسئلة، كان علي أن أتركك قوية حين أضعفني المرض، كان علي أن أحاول البحث عن نبضٍ أخر علّه يمنحني فرصة لأكمل ثورتي من جديد، كان علي أن أبحثَ عن وطنٍ يُشبهنا، عن سنواتِنا المسروقة، عن حقنا المسلوب، عن أمنيتنا اليتيمة الضائعة، كان علي أن أهربَ من لحظةٍ لا أريدُ فيها أن أقولَ لكِ أن هذا القلب الذي يُخرج حبا قويا جدا، هو في الحقيقة ضعيف جدا، كان علي أن أفعل كل هذا كي لا أراكِ، وأن لا أراكِ أهونُ عليَّ بكثيرِ من أن أراكِ للمرة الأخيرة. "

معرفة بلا حدود

شركة مكتبتكم الدولية للنشر والتوزيع

الكويت – حولي – شارع بيروت

الطبعة الأولى | 2015

رقم الإيداع: 2015/507